كامل الهاشمي

قضايا إسلامية معاصرة

أسلمة الذات

في المنهج التغييري للأئمة



قضايا اسلامية معاصرة

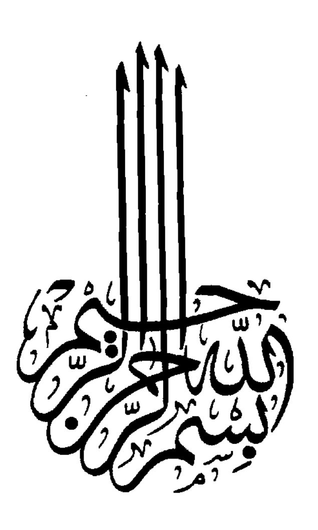
كامل الهاشمي

أسلمة الذات

في المنهج التغييري للأئمة



للطباعة والنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الأهمية الكبرى التي تجسدها الرسالات الإلهية في تاريخ وحياة البشر أنها تنطوي على مشروع تغييري شامل وعميق، بمعنى أن مشروع التغيير الذي تحمله الرسالة الإلهية إلى الإنسان لا يكتفي بانجاز دور تغييري محدود في وجود الإنسان، بل الدور الذي تحرّك الرسالة الإلهية الإنسان نحو تفعيله وتحقيقه وانجازه يستوعب أولاً كل مناحي الوجود البشري من اجتماعية وأخلاقية وسياسية واقتصادية... الخ، كما أنه ثانياً يستهدف تغيير الإنسان ضمن مجالاته العقلية والشعورية والسلوكية، وانطلاقاً من ذلك لم تكن الرسالات فيما تنجزه من مهمة تغييرية تقف بالانسان عند حد التطوير والتغيير في جانب من جوانب الوجود الانساني أو تحصر دورها في أفق محدود من آفاق الوجود الفردي أو الجمعي للبشر ؛ وهذه المهمة التغييرية التي تنجزها الرسالات الإلهية أفضل ما يمكن أن يطلق عليها أنها مهمة «أسلمة الذات»، وهي تسمية مستلّة من تعابير الذكر الحكيم كما تفصح عنها الآيات التي استهللنا بها الكتاب.

وإذا ما أردنا أن نضع أيدينا على منهج اسلامي تمكن من تجسيد والتزام هذا المعنى الذي استهدفت الرسالات الإلهية تحقيقه في حياة الإنسان فإننا لن نجد أفضل وأسلم من ذلك المنهج التغييري الذي اختطه أئمة أهل

البيت عليهم السلام في تهذيب وتربية النفس البشرية وتسييرها في طريق التكامل المعنوي والإنساني.

ومما لا شك فيه أن هذا المنهج لعوامل سياسية ودينية أُخفيت الكثير بل الأكثر من أبعاده، وطُمست العديد من معالمه في ظل الصراعات السياسية والمذهبية التي لم ينفك عنها تاريخ المسلمين، ولا سيما أن هذه الصراعات لم تكن تجري فيها الأمور على ضوء القيم والمبادئ التي أتى بها الإسلام وحثّ المسلمين على ممارستها والتزامها حينما يختلفون مع بعضهم البعض، ومن هنا ساهمت هذه الصراعات في قلب وتزييف المقدار الأكبر من الحقائق مما جعل من مهمة التمييز وإدراك حقيقة كل فكرة أو مذهب أمراً لا يتيسر إلاّ بالبحث الشاق والمضني، والذي يستوعب السنوات الطوال من حياة وعمر الإنسان.

ولأن الناظر ببصر وبصيرة في مجريات الوقائع والأحداث في تاريخنا الإسلامي، لا يجد مناصاً من الاقرار بمقدار الحيف والجور الذي لحق بالفكر النير لأئمة أهل البيت عليهم السلام، مما يحتم عليه ضرورة المساهمة في كشف وازاحة الغبار المتراكم عبر السنوات والقرون على هذا الفكر، مما أفقد المسلمين نعمة كبرى في الاستنارة بفكر وتراث وعلم هذه الشجرة المباركة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ولا سيما أن أهل بيت النبوة والرسالة هم العدل الذي قرن به رسول الله صلى الله عليه وآله القرآن حينما قال ـ كما في الحديث المتواتر بين عامة المسلمين ـ: (إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض).

وإذا كان الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله قد عاين في حياته قومه يتخذون القرآن مهجوراً فقال ـ كما يحكي عنه القرآن الكريم نفسه ذلك ـ: (يا ربِ ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) (الفرقان: ٣٠)، فلا شك أنه وهو في مقامه الكريم عند ربه يعاين بعد وفاته كيف توسع نطاق الهجر والهجران ليشمل عدل القرآن والعترة الطاهرة التي أذهب الله عنها الرجس وطهرها تطهيراً، والتي جعل رسول الله صلى الله عليه وآله جزاء أجره على ما بلغ من رسالة مودتها، فقال الله عزّ وجلّ على لسانه: (قل لا أسئلكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى) (الشورى: ٢٣).

ومن يمعن النظر في التراث الروائي لأئمة أهل البيت عليهم السلام يدرك حقيقة الدعوى التي تعتبرهم أئمة على الخلق، وأنهم الواسطة بين الله وخلقه، والأدلاّء على طريقه، وهم الهداة إلى الدين، ففي هذا التراث يقع الإنسان على القدرة والعلم اللذينِ تمتع بهما الأئمة عليهم السلام في مجال معرفة خفايا وأسرار النفس البشرية، والتمكن من رسم وتحديد وضبط السبيل لإصلاحها وهدايتها، ولا شك أن هذين الأمرين هما اللذان يختزلان كل معنى للدور الذي تسعى الرسالات السماوية لانجازه في المحيط الإنساني.

وما نريد القيام به في هذا الكتاب هو الكشف عن المضامين الراقية التي اختزنتها أحاديث الأئمة عليهم السلام في المجال التغييري والإصلاحي، ومحاولة التعرف على معالم المنهج الذي تنباه الأئمة عليهم السلام في أسلمة الذات الإنسانية وتسييرها في رحاب الالتزام والمسؤولية وتحمل أعباء عملية اصلاح الذات والمجتمع.

وأيّة مهمة تغيير وإصلاح تريد أن تتوفق في انجاز مسؤولياتها لابد أن تتفهم أولاً وقبل كل شيء طبيعة الموضوع الذي تريد تغييره واصلاحه، ولما كان الإنسان هو المقصود أولاً وأخيراً بهذه المهمة، كان من اللازم أن تتوفر الرؤية التغييرية والإصلاحية الناجحة على وعي تام واحاطة شاملة بمتغيرات النفس البشرية وتقلبات أحوالها ومستلزمات اصلاحها، وهذه الخصال توفر عليها منهج الأئمة عليهم السلام في أسلمة الذات، بحيث يمكننا القول إن الأئمة عليهم السلام طرحوا منهجاً فريداً ومتكاملاً في تغيير الذات، ونحن نسعى في هذا الكتاب لإبراز معالم هذا المنهج ضمن مستوياته الثلاثة التي تحرك فيها أو عالجها، وهي أولاً مستوى التغيير العقلي الفكري الذي يتوجّه للعقل من أجل أن يقوّم أفكاره ويصحح مفاهيمه وتصوراته المختلفة، وثانياً مستوى التغيير النفسي الشعوري الذي يتوجه لمشاعر النفس وأحاسيسها من أجل أن يصوغها صياغة متزنة وعقلائية تبتعد بها عن التأزم والاضطراب، وثالثاً مستوى التغيير العملي السلوكي الذي يتوجه لتحركات الذات وتصرفاتها فيستهدف قولبتها في قوالب الأوامر والتوجيهات العقلية والشرعية التي لا يمكن أن تنطلق إلاّ في طريق اصلاح الذات وهدايتها إلى ما فيه صلاحها وخيرها في الدارين.

وعلى هذا الأساس صار كتابنا هذا في فصول ثلاثة وخاتمة بحسب مجالات ومحاور التغيير التي تناولها المنهج التغييري لأئمة أهل البيت عليهم السلام، وأما الخاتمة فقد حاولنا أن نلخص فيها النتيجة الكلية المستقاة من الفصول الثلاثة المتقدمة.

ومن الله تعالى نستمد العون والتوفيق...

الفصل الاول

منهج الأئمة في التغيير العقيدي



في هذا الفصل الأول من الكتاب سيتم الحديث عن طبيعة ومعالم التغيير العقيدي والفكري الذي رام أئمة أهل البيت عليهم السلام تأصيله وتأسيسه في مشروعهم لأسلمة الذات؛ وفي هذا الشأن لا يمكن لنا أن نغفل في بداية حديثنا في هذا المجال الإشارة إلى الاهتمام الذي أولاه القرآن الكريم لهذا البعد في تحديد مصير الإنسان وبناء ذاته، بل يمكننا القول: ان البعد العقيدي والفكري هو الأساس والمنطلق الذي كانت كل الرسالات الإلهية تبدأ أول ما تبدأ مشروع التغيير منه، ففي هذا البعد من التغيير يتوجه الخطاب الذي يتأسس باسم الدين إلى عقل الإنسان ليبدأ عملية صياغة مستجدة للتصورات والمفاهيم والقيم التي تحملها الذات.

وصياغة عقلية الانسان صياغة مستجدة من قبل الدين هي المهمة الأولى للرسل والأنبياء عليهم السلام، وهي المهمة التي كرّر الذكر الحكيم الاشارة إليها في العديد من آياته التي تحدثت عن مضمون الدعوة التي حملها هؤلاء الدعاة إلى الناس، إذ يقول عزّ من قائل:

١ – في شأن ما أتى به موسى عليه السلام من كتاب: (إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور..) (المائدة: ٤٤).

٢ ـ في شأن الكتاب الذي جاء به عيسى عليه السلام: (وقفّينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدّقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى

ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين) (المائدة: ٤٦).

٣ ـ في شأن الكتاب الذي جاء به خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله: (الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) (ابراهيم: ١).

والأمر الكلي الذي نرى أن الله عزّ وجلّ قد جعله صفة مشتركة تتميز بها الدعوات الإلهية هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وهو تعبير محمّل بكل معاني الدقة والوضوح والعقلانية والكشف عن الحق والحقيقة التي ترتبط بالأفكار المطروحة من قبل القائمين على هذه الدعوات الإلهية، وهو تعبير يشير في الوقت نفسه إلى الظلامية والاضطراب والتخبط التي تعيشها الدعوات والأفكار المقابلة لدعوات الرسل والأنبياء عليهم السلام، وهذه الخصائص التي تتميز بها الدعوات الإلهية تتناسق وتنسجم تمام الانسجام مع الخصائص والصفات التي يتميز بها الباري سبحانه وتعالى، فهو حينما يصف نفسه يقول: (الله نور السموات والأرض..) (النور: ٣٥)، ومن كانت ذاته كلها نوراً بل هي عين النور وحقيقته، لابد أن يكون فعله كله نوراً وهدى بمقتضى قانون السنخية والمناسبة بين الذات والفعل، ومن هنا وصف عزّ اسمه فعله بالقول: (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) (البقرة: ٢٥٧)، وبقوله: (هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور) (الأحزاب: ٤٣).

وعلى هذا الأساس أيضاً لا مناص من أن تكون كلّ الدعوات الإلهية والرسالات الربانية هي انعكاس حقيقي لهذا الأمر، وهو المعنى الذي يذكرنا القرآن الكريم به حينما يتحدث عن الدعوات التي حملها أنبياء الله تعالى ورسله إلى الناس بالقول:

١ ـ (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن اخرج قومك من الظلمات إلى النـــور وذكّرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور)(إبراهيم: ٥).

٢ ـ (هو الذي ينزّل على عبده آيات بينات ليخرجكــم مــن الظلمــات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم) (الحديد: ٩).

٣ ـ (يا أيها الناس قد جاءكم برهــــان مــن ربكـم وأنزلنـا إليكـم نـوراً مبيناً)(النساء: ١٧٤).

وإذا كانت الصفة التي ميزّت هذه الدعوات الإلهية هـــي النـور والهدايـة وملازمة الحق، فإن ما حملته ودعت إليه الدعوات المقابلة كان على العكس تماماً، ولقد وصف الحق عزّ شأنه أصحاب هذه الدعـوات الضالـة المضلّـة بقولـه: (والذيـن كفـروا أوليـاؤهم الطـاغوت يخرجونـهم مـن النـــور إلى الظلمات) (البقرة: ٢٥٧)، وقوله: (مثلهم كمثـل الـذي اسـتوقد نـاراً فلمّـا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصـــرون * صـــم بكم عمي فهم لا يرجعون) (البقرة: ١٧ ـ ١٨).

وقال سبحانه في مقام المفاضلـــة بـين دعوتـه ودعـوة الكـافرين وأهـل الضلال: (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشــيء إلاّ كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعــاء الكـافرين إلاّ في ضلال) (الرّعد: ١٤).

وبعد ان اتضحت لنا معالم الدعوات الإلهية التي حملها الأنبياء والرسل عليهم السلام إلى أقوامهم وأممهم، نجد المجال متاحــاً أمامنـا لاسـتعراض المعالم التفصيلية التي أرساها المنهج التغيــيري لأئمـة أهـل البيـت عليـهم السلام في المجال العقيدي والعقلي، والتي حكى وحاكى فيها المنهج الإلهــي

الذي تعرفنا على أبرز معالمه كما بينها لنا القرآن الحكيم، وتفصيل الحديث عن جزئيات مهمة أسلمة الذات التي سعى المنهج التغييري للأئمة عليهم السلام للكشف عنها في المجال العقائدي يتشخص في النقاط التالية:

١ ـ في البدء كان العقل

ان اختيارنا لهذا العنوان بالذات ـ من أجل أن نبدأ ببيان منهج الأئمة عليهم السلام في التغيير العقيدي ـ له أهميته الخاصة، إذ إن هناك الكثير من الاتهامات الظالمة التي مازال البعض يكررها ويسوقها ضد التراث الشيعي لأئمة أهل البيت عليهم السلام، ساعياً لوصم هذا التراث ولا سيما في نظريته حول موضوع الإمامة بالمفارقة للعقل واتخاذه مسلكاً باطنياً يتصادم مع بديهيات العقل والمنطق [1]، ومن أجل ذلك أردنا أن نفصح أولاً وقبل كل شيء عن القيمة الكبرى التي أعطاها تراث أئمة أهل البيت عليهم السلام للعقل كأول مصدر معرفي يؤسس للانسان معارفه وتصوراته عن مختلف الحقائق الوجودية الدينية منها وغير الدينية.

وأول حقيقة يطرحها أئمة أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال هي الإفصاح عن أن أول مخلوق من خلق الله هو العقل، وأنه أول من خوطب بالتكاليف الإلهية، فقد رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (أول ما خلق الله العقل) [2].

---

(١) انظر في هذا المجال على سبيل المثال أفكار كل من الدكتور محمد عابد الجابري في مشروعه المسمى بـ «نقد العقل العربي»، وأفكار الدكتور محمد عمارة في كتابه: «تيارات الفكر الاسلامي» أثناء حديثه عن التراث الفكري للشيعة.

(٢) العلاّمة محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ١، ص ٩٧، ح ٨، دار الكتب

وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: (لمّا خلق الله العقل استنطقه، ثم قال: له أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك، ولا أكملك إلاّ فيمن أحب، أما إني إيّاك آمر، وإيّاك أنهى، وإيّاك أثيب) [1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: (إن الله خلق العقل، فقال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: وعزّتي وجلالي ما خلقت شيئاً أحبّ إلي منك، لك الثواب وعليك العقاب)[2].

ولقد اعتمد الأئمة عليهم السلام على العقل وأشادوا بدوره في المجال المعرفي واعتبروه حجة الله على العباد، ونُسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإفطار العاقل أفضل من صوم الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل، ولا بعث الله رسولاً ولا نبياً حتّى يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من عقول جميع أمته، وما يضمر النبي في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين، وما أدى العاقل فرائض الله حتى عقل منه، ولا بلغ جميع العابدين في عبادتهم ما بلغ العاقل، إن العقلاء هم أولو الألباب الذين قال الله عزّ وجلّ: «إنما يتذكر أولوا الألباب») [3].

واعتبر الأئمة عليهم السلام أن استحقاق الجزاء تابع للعقل، فعن أبي

الإسلامية، إيران ـ طهران، الطبعة الرابعة، ١٣٦٢ هجري شمسي.

(١) نفس المصدر، ص ٩٦، ح ١.

(٢) نفس المصدر، ح ٣.

(٣) نفس المصدر، ص ٩١ ـ ٩٢، ح ١٢.

عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا بلغكم عن رجل حسن حاله فانظروا في حسن عقله فإنما يجازى بعقله) [1].

وفي حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له) [2].

وهذا الحديث يفتح أذهاننا على التأصيل القوي الذي أراد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أن يجعله للعقل في حياة الإنسان المسلم، فلقد قرن بين الدين والعقل معتبراً أن العقل هو الباب الذي يلج منه الإنسان إلى الدين، فالعقل هو بوابة الدين، وحينما يفتقد الإنسان هذه البوابة فإنه يفتقد السبيل لمعرفة ووعي الدين، فالتدين إذن لابد أن يُسبَق بعملية تعقل، وإلاّ تحوّل الدين إلى خرافة ومجرد ممارسات وشعائر فارغة من أي معنى؛ وعلى هذا الأساس صارت العبادة القائمة على أساس العقل والعلم خيراً من العبادة القائمة على الجهل والشك، ففي الحديث المتقدم عنه صلى الله عليه وآله: (ولا بلغ جميع العابدين في عبادتهم ما بلغ العاقل)، وهو المعنى الذي أفاضت في تأكيده عدّة من مرويات أئمة أهل البيت عليهم السلام سنعرض لها في الفصل الثالث من الكتاب حينما نتحدث عن قيمة العمل والعبادة في منهج الأئمة في التغيير العملي.

ومن تلك المرويات التي أرادت أن تؤسس للعقل دوره في حياة الفرد المسلم هو ما يرويه في البحار عن كنز الكراجكيّ عن النبي صلى الله عليه

---

(١) نفس المصدر، ص ٩٣، ح ١٤.

(٢) نفس المصدر، ص ٩٤، ح ١٩.

وآله وهو قوله: (لكل شيء آلة وعدّة وآلة المؤمن وعدّته العقل، ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل، ولكل شيء غاية وغاية العبادة العقل، ولكل قوم راع وراعي العابدين العقل، ولكل تاجر بضاعة، وبضاعة المجتهدين العقل، ولكل خراب عمارة وعمارة الآخرة العقل، ولكل سفر فسطاط يلجئون إليه وفسطاط المسلمين العقل)(١).

إن النكتة المهمة والدقيقة التي ينطوي عليها هذا الحديث الشريف تختزل في أنه أراد أن يؤسس دور العقل والعقلانية في حياة المسلمين، وذلك حينما اعتبر العقل الفسطاط الذي يلجأ إليه المسلمون جميعهم، ولو قدّر لهذا التأسيس والإرشاد النبوي أن يأخذ مجاله في عقائد وأفكار وممارسات المسلمين لكان من المؤكد أن تكون الحالة العقلية عند المسلمين على غير ما جسدوها طوال تاريخهم حينما سمحوا لأنفسهم أن يتحركوا باتجاه مضاد للعقل في العديد من أبعاد حياتهم وممارساتهم، مما خلّف صورة سيئة ومشوهة عن حقيقة الدين والإسلام، وبالأخص في حيّز العقائد الدينية التي وجدت لها مجالاً أن تصاغ في كثير من الأحيان بعيداً عن منطق العقل، بل وأن تكون مضادة للعقل.

٢ ـ العقيدة والعقل في البناء المعرفي للأئمة عليهم السلام

العقيدة لم تكن في يوم من الأيام زيادة أو ترفاً يمكن للانسان أن يستغني عنه، فهي تتأصل في حياة الانسان عبر الأسئلة الكثيرة التي تفرض نفسها عليه من دون أن يجد مجالاً للفرار منها.. نعم قد يمكن للإنسان أن

---

(١) نفس المصدر، ص ٩٥، ح ٣٤.

يصير لا مبالياً وغير مكترث وأن يتحلّل من الانتماء إلى أيّة عقيدة أو فكرة أو أيديولوجية، وأن يغلق منافذ سمعه وعقله عن الاصغاء إلى أيّ صوت يحاول استنطاق عقله وتحريك فكره، ولكن تبقى الحقيقة أكبر من اعتراف الانسان وعدم اعترافه بها، وتبقى في نهاية المطاف هي التي تفرض نفسها وحتميتها على الإنسان، ومن هنا يحاول القرآن الحكيم أن يفتح أذهان الناس ممن يتنكرون لحقيقة الخالق ويتناسونه في غمرة مشاغل الحياة بالتأكيد على أن الله عزّ وجلّ حقيقة أكبر من أن تُنسى وأن يُتغافل عنها، لأن الإنسان سيواجهها حتماً في نهاية المطاف، فيقول تعالى: **(والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب)** (النور: ٣٩).

وانطلاقاً من هذه الحقيقة يعتبر الباري عزّ اسمه الكافرين ممن يتنكرون لحقيقة الحقائق وهو الله تعالى غير جديرين أبداً بأن يندرجوا في مصاف الإنسانية بل هم أجدر بأن يدرجوا مع البهائم لأنهم بكفرهم بالله قد عطلوا عقولهم وأغلقوا منافذ أحاسيسهم ومشاعرهم، فيصفهم بالقول: **(ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلاّ دعاءً أو نداءً صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لايعقلون)** (البقرة: ١٧١).

ويصفهم في مورد آخر بالقول: **(مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلمّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لايرجعون)** (البقرة: ١٧ ـ ١٨).

ولأن العقيدة تجد ضرورتها في حياة الإنسان من موقع كشفها عن الحقيقة فلذا نجد الذكر الحكيم يستنكر في موارد عديدة ومتكررة على

أولئك الذين يريدون أن يؤسسوا لنفي أو إثبات الأمور العقائدية عبر حالات الظن والوهم التي لا تستند إلى عقل أو برهان، والتي لا يمكن أن تكون وسيلة للكشف عن الحق والحقيقة، فيقول عزّ شأنه:

١ ـ **(أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون)** (المؤمنون: ١١٥).

٢ ـ **(وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة إن نظنُّ إلاّ ظناً وما نحن بمستيقنين)** (الجاثية: ٣٢).

٣ ـ **(قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنيّ له ما في السموات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون)** (يونس: ٦٨).

وفي هذا السياق كان أخذ الله تعالى على من يؤمن برسالاته ويصدق بكلماته أن لا يقولوا على الله ما لا يعلمون، وهو المبدأ الذي نرى أن الله عزّ وجلّ قد اشترطه على المؤمنين بقوله: **(قل إنّما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)** (الأعراف: ٣٣).

ولأهمية العقيدة فيما تمثله من ارتباط بين الخالق والمخلوق فقد أصرّ أئمة أهل البيت عليهم السلام على ضرورة أن تتجسد هذه الرابطة في الزمن والتاريخ من خلال إيمان الإنسان المتواصل بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وفي هذا الشأن سعى الأئمة عليهم السلام لترسيخ جملة من المفاهيم العقائدية، ولكن بالانطلاق من العقل واستناداً إليه، فالعقيدة في نظر الأئمة عليهم السلام تتأسس أول ما تتأسس على العقل وبالاسترشاد

منه، إذ هو الحجة لله تعالى على الناس في كل زمان ومكــان، ولقـد خـاطب الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام هشام بن الحكم بـالقول: (يـا هشام بـن الحكـم إن الله جـلّ وعـزّ أكمـل للنـاس الحجـج بـالعقول) [١]، ويضيف الإمام عليه السلام قائلاً: (يا هشام ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده إلاّ ليعقلوا عن الله فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً، وأعقلهم أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة) [٢].

ويؤسس الإمام عليه السلام في حديثه هذا للعلاقة بين العقــل والوحــي عبر مقولته التي يقول فيها لهشام: (يا هشام إن لله علــى النــاس حجتــين: حجة ظاهرة، وحجة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليــهم السلام، وأمّا الباطنة فالعقول) [٣].

وفي نص بليغ الدلالة من هذه الوصية لهشــام بـن الحكـم نجـد الإمــام الكاظم عليه السلام يفصح عن المداخلات العميقة والمستحكمة بين كل مــن العقيدة والعقل والعلــم في تشـكيل الالـتزام العملـي للانســان بطاعـة الله عزّ وجلّ والتي تعتبر الغاية الأصلية لخلق الإنسان وتواجده في هذه الحيـاة الدنيا، وذلك حينما يقول عليه السلام: (يا هشام نُصِب الخلــق لطاعـة الله، ولا نجاة إلاّ بالطاعة، والطاعة بالعلم، والعلم بالتعلم، والتعلم بالعقل يعتقد، ولا علم إلاّ من عالم رباني، ومعرفة العالم بالعقل)[٤].

---

(١) نفس المصدر، ص ١٣٢، ح ٣٠.

(٢) نفس المصدر، ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٣) نفس المصدر، ص ١٣٧.

(٤) نفس المصدر، ص ١٣٨.

إن هذه البيانات الصادرة عن الإمام الكاظم عليـه السـلام تكشـف لنـا كيف أراد الأئمة عليهم السلام أن تتقوم العقيدة بالعقل وتستند إليه في كـل تصوراتها، وإذا ما خالفت العقيدة العقل وناقضته فهي تفتقد أيّـة قيمـة في ميزان العلم والمعرفة، والإيمان ليس بديلاً عن العقل، بل هو والعقل عينـان يبصر بهما الإنسان الحقيقـة ويكتشـف بـهما المجـهول ويسـتكمل بـهما المعرفة، ومن هنا يبقى للعقل حتى بعد مجيء الرسـالة وتعـرّف الإنسـان على كلمة الوحي دوره في إمداد الإنسان بالمعرفة وتصحيح معتقداته، وهو الأمر الذي أفصحت عنه مرويات أئمة أهل البيت عليهم السلام كما في هـذا الحديث الذي يدور بين الإمام الهادي عليه السـلام وابـن السـكّيت العـالم والأديب اللغوي المشهور، إذ يقول الأخير لأبي الحسن الهادي عليه السلام: (لماذا بعث الله موسى بن عمران عليه السلام بالعصا واليد البيضـاء وآلـة السحر؟ وبعث عيسى بآلة الطب؟ وبعث محمداً ـ صلى الله عليه وآله وعلى جميع الأنبياء ـ بالكلام والخطب؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: إن الله لمّـا بعث موسى عليه السلام كان الغالب على أهل عصره السحر، فأتاهم مـن عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله، وما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجة عليهم، وإن الله بعث عيسى عليه السلام في وقت قد ظهرت فيـه الزمانـات واحتاج الناس إلى الطبّ، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، وبمـا أحيا لهم الموتى، وأبرء الأكمه والأبرص بإذن الله، وأثبت به الحجة عليهم.

وإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله في وقت كان الغالب علـى أهـل عصره الخطب والكلام ـ وأظنه قال: الشـعر ـ فأتـاهم مـن عنـد الله مـن مواعظه وحكمه ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجة عليهم ؛ قال: فقال ابـن

السكيت: تالله ما رأيت مثلك قطّ فما الحجة على الخلق اليوم؟ قال: فقال عليه السلام: العقل، يعرف به الصادق على الله فيصدّقه والكاذب على الله فيكذّبه؛ قال: فقال ابن السكيت: هذا والله هو الجواب) [1].

٣ ـ التوحيد أساس المعرفة الدينية

الأصل الأصيل الذي تبتني عليه المعرفة الدينية هو التوحيد، فتوحيد الخالق عزّ وجلّ، والإقرار له بالربوبية وحده، ونفي كل شريك معه هي أول حقيقة يطالب الدين الإنسان الإقرار بها والتسليم لها، لأنها الباب الذي يستطيع الإنسان النفود منه إلى بقية الحقائق الدينية والوجودية التي أراد الدين من الانسان أن يتعرّف عليها ويتعامل معها بواقعية معطياً إياها حجمها الطبيعي في واقعه وحياته.

وفي القرآن المجيد نجد الإشارة المتكررة من قبل الله تعالى إلى أن أول وأهم ما حمله الرسل والأنبياء وعباد الله الصالحون إلى أممهم وأقوامهم هو الدعوة للتوحيد ونفي الشريك عنه عزّ شأنه، وهذا ما يصرح به تعالى في قوله:

١ ـ (وإلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم) (البقرة: ١٦٣).

٢ ـ (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد..) (الكهف: ١١٠).

٣ ـ (فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشّر المخبتين) (الحج: ٤).

---

(١) محمد بن يعقوب الكليني: الأصول من الكافي، ج ١، ص ٢٤، دار الكتب الإسلامية، إيران ـ طهران، الطبعة الثالثة، ١٣٨٨ هـ.

وهذه الدعوة للتوحيد ونفي الشريك عنه سبحانه يبيّن الله عزّ وجلّ أنها تبتني على أساس العقل والبرهان، ولا تأتي كفرضية مسلمة، يُجبر الإنسان على اعتناقها والقبول بها، من دون أن تمتلك مبررات القبول والتسليم بها، وهو الأمر الذي يمكن استفادته من عدّة تعابير قرآنية جاءت لتفصح عن السبب في رفض الإيمان بشريك آخر مع الله وضرورة تخصيصه بالربوبية والوحدانية، كما في قوله تعالى: (الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كلّ شيء فقدّره تقديراً * واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يُخْلَقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً) (الفرقان: ٢ ـ ٣).

ففي هاتين الآيتين من الذكر الحكيم نلتقي مع توجيه قرآني عقلي لرفض الشريك عنه تعالى، إذ هو ـ كما تشير الآية الأولى ـ مالك السماوات والأرض وهو الذي خلق كل شيء فقدّره تقديراً، وصفتا الملك والخلق صفتان مطلقتان لله عزّ وجلّ، بمعنى أنه المالك والخالق لكل شيء، وكل شيء عداه مملوك ومخلوق له، وبالتعبير الفلسفي ان الله عزّ اسمه علة كل معلول، والأشياء كلها معلولة له، وذلك لأننا لو فرضنا سلسلة مترتبة من العلل والمعلولات فستكون أوساطها متصفة بصفة أنها علة لما دونها ومعلولة لما فوقها، وفي نهاية السلسة من طرف المعلولات لابد أن تنتهي إلى معلول ليس بعلة، وفي طرف العلل لابد أن تنتهي السلسلة إلى علة ليست بمعلولة، وإلاّ استلزم ذهاب السلسلة من الطرفين إلى ما لا نهاية، وهو التسلسل الباطل عقلياً وفلسفياً.

ومن هنا فإن من يكون علة لكل شيء وليس هو معلولاً لأي شـيء فهو الجدير بوصف الربوبية والاستفراد بالملك الحقيقي لكل الأشياء، والملك الحقيقي رابطة وجودية حقيقية تربط بين العلة والمعلول، وهي متفرعة من صفة الخلق، التي تعني استفاضة كل الموجودات بلا استثناء موجوديتها منه سبحانه وتعالى.

ويبيّن عزّ شأنه في الآية الثانية من المقطع القرآني المتقدم أن غيره غير جدير بأن يكون إلهاً ومعبوداً، إذ الإله هو الخالق المتصرف القادر على كل شيء، وهؤلاء الذين يُدعون آلهة مع الله هم خلق من خلق الله، بل هم في الحقيقة خلق مخلوقات الله، لأن الإنسان بجهله وتعطيله لعقله خلق من الصنم أو الشمس أو القمر أو غيرها من الأشياء التي عبدها واتخذها آلهة صورة ذهنية جعلها تشارك الباري عزّ اسمه في صفاته وذاتياته، ولو تأمل الإنسان لرأى أن هذه الأشياء لا تتوفر على أيّة صفة من صفات الإله الخالق، فهي لا تملك لنفسها ـ فضلاً عن أن تملك لغيرها ـ ضراً ولا نفعاً، وهي لا تحي ولا تميت، فهي فقيرة عاجزة، ومن كانت هذه صفته فيستحيل أن يتصف بالإلوهية والربوبية.

ولقد تواصل أئمة أهل البيت عليهم السلام مع القرآن في التأكيد على مسألة التوحيد واعتبارها أصلاً أصيلاً من أصول الدين، وساهم الأئمة عليهم السلام خلال تاريخهم الحافل بالدفاع عن مبادئ العقيدة في تثبيت أركان هذا المعتقد العقلي والديني، وقد حفظ لنا التاريخ العديد من كلماتهم ومناظراتهم في هذا الشأن، وكانت كلمات ومناظرات الأئمة عليهم السلام في قضايا التوحيد وإثبات وجود الخالق سبحانه وتعالى وتفرده بالربوبية

ونفي الشريك عنه كلها تقوم على أساس العقل والبرهان، ولا نجد حتى في واحدة من مرويات الأئمة عليهم السلام في هذا المجال، ما يمكن أن يضفي على هذه العقيدة طابع التقليد والإيمان المجرد، وهذا نزر يسير من كلمات ومحاورات الأئمة عليهم السلام في بيان مبدأ الوحدانية نستعرضه من أجل أن تتضح لنا هذه السمة التي وسمت وميزت تراث الأئمة العقلي والعقيدي.

فقد روى الكليني (رحمه الله) في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال للزنديق المعتقد بوجود إلهين اثنين: (لا يخلو قولك: إنهما اثنان من أن يكونا قديمين قويين أو يكونا ضعيفين أو يكون أحدهما قوياً والآخر ضعيفاً، فإن كانا قويين فلم لا يدفع كل واحد منهما صاحبه ويتفرَّد بالتدبير، وإن زعمت أن أحدهما قويٌّ والآخر ضعيف ثبت أنه واحد كما نقول، للعجز الظاهر في الثاني، فإن قلت: إنهما اثنان لم يخلُ من أن يكونا متفقين من كل جهة أو مفترقين من كل جهة، فلما رأينا الخلق منتظماً، والفلك جارياً، والتدبير واحداً، والليل والنهار والشمس والقمر، دلّ صحة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر على أن المدبر واحد ؛ ثم يلزمك إن ادّعيت اثنين فرجة مابينهما حتى يكونا اثنين فصارت الفرجة ثالثاً بينهما قديماً معهما فيلزمك ثلاثة، فإن ادّعيت ثلاثة لزمك ما قلت في الاثنين حتى تكون بينهم فرجة فيكونوا خمسة ثم يتناهى في العدد إلى ما لا نهاية له في الكثرة)[1].

وروى الشيخ الصدوق (رحمه الله) في كتاب «التوحيد» أنه: (قام رجل إلى

---

(١) الأصول من الكافي، ج ١، ص ٨٠ ـ ٨١.

الرضا عليه السلام [1] فقال له: يا بن رسول الله صف لنا ربك فإن من قبلنا قد اختلفوا علينا، فقال الرضا عليه السلام: إنه من يصف ربه بالقياس لا يزال الدهر في الالتباس، مائلاً عن المنهاج ظاعناً في الاعوجاج، ضالاً عن السبيل، قائلاً غير الجميل، أُعَرِّفُه بما عرّف به نفسه من غير رؤية، وأصفه بما وصف به نفسه من غير صورة، لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، معروف بغير تشبيه، ومتدان في بعده لا بنظير، لا يُمَثَّل بخليقته، ولا يجور في قضيته، الخلق إلى ما علم منقادون، وعلى ما سطر في المكنون من كتابه ماضون، ولا يعملون خلاف ما علم منهم، ولا غيره يريدون، فهو قريب غير ملتزق، وبعيد غير متقص، يحقق ولا يمثل، ويوحد ولا يبعض، يعرف بالآيات، ويثبت بالعلامات، فلا إله غيره الكبير المتعال)[2].

وأجمل وأروع صور التوحيد ووصف الباري سبحانه وتنزيهه عن المنافيات رسمتها كلمات إمام الموحدين علي بن أبي طالب عليه السلام، والتي نجدها متناثرة في كتابه الخالد «نهج البلاغة»، وهي كلها تحكى مستوى متعالياً وراقياً من توحيد الخالق لا يمكن أن تجد له نظيراً في غير القرآن الكريم [3]، ففي أول خطبة يرويها له الشريف الرضي (رحمه الله)

---

(١) هو الإمام أبو الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام، الإمام الثامن من أئمة أهل البيت عليهم السلام، ولد في المدينة، وتوفي في خلافة المأمون العباسي، ودفن في طوس المعروفة اليوم بـ «مشهد» من مدن إيران.

(٢) محمد بن علي الصدوق: التوحيد، ص ٤٧، ح ٩، مكتبة الصدوق، إيران ـ طهران، ١٣٩٨ هـ.

(٣) يتحدث ابن أبي الحديد الشارح المعتزلي لنهج البلاغة عن خطب أمير المؤمنين في

في نهج البلاغة يقول عليه السلام: (الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصي نعماءه العادّون، ولا يؤدّي حقّه المجتهدون، الذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن، الذي ليس لصفته حدّ محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود، فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرّياح برحمته، ووتد بالصخور ميدان أرضه.

أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّاه، ومن جزّاه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال فيم فقد ضمّنه، ومن قال علام فقد اخلى منه، كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه،

(*) التوحيد والمعارف الإلهية قائلاً: (وأما الحكمة والبحث في الأمور الإلهية، فلم يكن من فنّ أحد من العرب، ولا نُقل في جهاد أكابرهم وأصاغرهم شيء من ذلك أصلاً، وهذا فنّ كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفردون به، وأول من خاض فيه من العرب علي عليه السلام، ولهذا تجد المباحث الدقيقة في التوحيد والعدل مبثوثة عنه في فرش كلامه وخطبه، ولا تجد في كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمة واحدة من ذلك، ولا يتصورونه، ولو فهموه لم يفهموه، وأنّى للعرب ذلك). انظر: ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ٦، ص ٣٧٠ ـ ٣٧١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٦٥ م.

متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده...)[1].

ومثل هذه الخطب والكلمات من قبل الإمام علي عليه السلام وبقية الأئمة عليهم السلام رفدت الفكر الإسلامي العقائدي بالكثير من المفاهيم والتصورات في مجال المعرفة الدقيقة بكنه الذات الإلهية وصفاتها وأفعالها، وساهمت بدورها في الوقوف بحسم وإصرار في وجه التيارات التجسيمية التي انتشرت بين العديد من المسلمين وبالأخص بعد أن انفتح المسلمون على أهل المذاهب والملل الأخرى من غير المسلمين ممن كانت عقائدهم ملوثة بالكثير من التصورات الساذجة والخرافية عن الذات الإلهية والعالم الغيبي، ولولا جهود أئمة أهل البيت عليهم السلام ولا سيما الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الشأن لأصبحت عقائد المسلمين تفتقد كل سمة من سمات العقلانية التي هي الخصيصة الأهم والأبرز للإسلام في معارفه الإلهية والتوحيدية.

والنكتة المهمة التي لا نجد بداً من الإشارة إليها في نهاية حديثنا عن أهمية فكرة التوحيد في المنهج العقيدي لأئمة أهل البيت عليهم السلام تتمثل في أن الأئمة عليهم السلام من خلال إصرارهم على تنزيه الذات الإلهية عن كل منافياتها، وتأكيدهم على ضرورة الالتزام بمبدإ التوحيد ضمن مجالاته ومستوياته المختلفة، ابتداء من التوحيد الذاتي، وانتهاء بالتوحيد الأفعالي، ومروراً بالتوحيد الصفاتي، وسواء في المستوى النظري للتوحيد أم في مستواه العملي [2]، تمكنوا من أن يحافظوا على بقية التصورات

---

(١) محمد دشتي وكاظم محمدي: المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، قسم الخطب، رقم ١، ص ١٥، مؤسسة النشر الإسلامي، إيران ـ قم، ١٤٠٦ هـ.

(٢) سيأتي إيضاح هذه المستويات والأبعاد المتعددة للتوحيد التي طرحها أئمة ﴿ع﴾

والمفاهيم الإسلامية والدينية نقية عن أن تطالها أيّة تشوهات وتحويرات تخرج بها عن صفائها وأصالتها، فلقد حافظ الأئمة عليهم السلام من خلال محافظتهم على نقاء مبدإ التوحيد على نقاء وصفاء التصورات الدينية في المجالات العقيدية الأخرى كالنبوة والإمامة والمعاد، فمستوى التنزيه للذات الإلهية الذي التزم به الأئمة عليهم السلام أسس الأساس لتأصيل وتثبيت بقية أفكارهم عن صفات وأفعال الله سبحانه وتعالى، وكذا تصوراتهم عن المقام السامي للأنبياء والرسل عليهم السلام، ومن بعدهم التصورات والأفكار المرتبطة بالأئمة الهداة الذين كان لوجودهم ضرورته في فكر الأئمة عليهم السلام عبر مقولة الهداية الإلهية المستمرة للبشر.

وببيان أوضح نستطيع القول: إن الأئمة عليهم السلام لمّا نزّهوا الذات الإلهية عن مقارنات وصفات البشر ورفضوا الصاق أيّ فعل أو صفة بها لا يتناسب أو تتناسب مع شأنها المتعالي، فقد رفضوا امتداداً لالتزامهم بهذه الدرجة المتعالية من التنزيه قبول أو نسبة أيّ شأن يحطُّ من مقام النبوة ودرجتها الرفيعة، ومن أجل ذلك رفضوا الإقرار بكل تلك الحوادث التاريخية المزيفة والاسرائيليات التي سرعان ما تسللت إلى أفكار المسلمين واستحوذت عليها ناسبة إلى الأنبياء والرسل عليهم السلام ما يشمئز الذهن من تصوره، ويستقبح اللسان النطق به.

وامتداداً لهذا الفكر التنزيهي الذي تبنّاه الأئمة عليهم السلام في مسائل التوحيد والنبوة، فقد أكّد الأئمة عليهم السلام أن مقام الخلافة والنيابة عن الرسل والأنبياء عليهم السلام هو بتلك الدرجة من الخطورة والرفعة، مما

أهل البيت عليهم السلام في تراثهم الفكري خلال بعض الأبحاث الآتية.

يستدعي توافر شرائط معينة في من يقوم مقام الرسول عليه السلام بعد وفاته وارتحاله، وكما كانت الشرائط اللازم توافرها في مقام الرسالة ليست من صنع البشر ولا تقع تحت اختيارهم كما لا يقع مقام النبوة نفسه تحت اختيارهم، فكذلك مقام الإمامة والخلافة عن الرسول ليس واقعاً تحت اختيار الناس ولا هو مرهون برضاهم وموافقتهم، إذ يقول عزّ شأنه: **(الله أعلم حيث يجعل رسالته)** (الأنعام: ١٢٤)، ويقول جلّ جلاله: **(النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم)** (الأحزاب: ٦)، ويقول سبحانه: **(وما كان لمؤمن ومؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم)** (الأحزاب: ٣٦).

وإذا ما أردنا أن ندرك الأثر الكبير الذي تركه هذا المنهج التنزيهي الذي التزمه الأئمة عليهم السلام في مختلف المسائل العقيدية، واستلهمه منهم اتباعهم وشيعتهم، فإن علينا أن نتأمل في المسار التاريخي الذي انتهى إليه واقع الخلافة والسلطة السياسية عند بقية الفرق والمذاهب الإسلامية التي لم تلتزم منهج الأئمة عليهم السلام في المجال العقائدي، فقد تنزلت هذه الفرق والمذاهب بالله عزّ وجلّ من مقامه الرفيع السامي ونسبوا إليه ما لا يصح عليه من الصفات والأحوال، وتلى ذلك أن يستنزلوا المقام الرسالي الرفيع لخير الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله بنسبة أمور مشينة إليه، ولو من موقع الجهل والغفلة عن مساسها بالذات المقدسة لرسول الله صلى الله عليه وآله، وتبعاً لذلك تحولت النظرة إلى مقام الخلافة والنيابة عن رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أن تقبل عامة المسلمين أن يتولى عليهم مثل معاوية وابنه يزيد شارب الخمور، ومثل مروان بن الحكم طريد رسول الله صلى الله عليه وآله.

وهذا التحول في واقع المسلمين السياسي والاجتماعي لم يكن بعيداً عن التحول السلبي الذي شهده المسلمون في مستواهم العقيدي ومفاهيمهم الدينية، وهو الأمر الذي يمكن أن يكشف لنا بأفضل صورة عن المغزى في إصرار الأئمة عليهم السلام على تصحيح عقيدة التوحيد والدفاع عنها بكل ثمن، والتضحية في سبيلها بكل غال.

٤ ـ منهج الأئمة عليهم السلام في التعرف على الخالق

مسألة إثبات وجود الخالق كانت وستبقى شغلاً شاغلاً للبشر في كل زمان، ولم ينفك تاريخ البشر عن اختلاف في هذه القضية، وبالرغم من كون التسليم بوجود الخالق ضرورة عقلية وفطرية، إلاّ أن جدلية الإنسان لا تدع فكرة من دون نقاش، والنزعة الحسية التجسيدية للإنسان تدفعه في كثير من الأحيان لاعتبار المناط والملاك في اثبات أيّة حقيقة أو انكارها هو قدرته على اثباتها بالحسّ، أو عجز حسّه عن إدراكها، ولا يتنبه الإنسان في أثناء ذلك إلى أن التوسل بالحسّ لاثبات وجود الخالق هو استخدام للحسّ في غير مجاله، وهو بمثابة من يريد أن يتعرف على الجراثيم غير المرئية بالعين المجردة عبر استخدامه للتلسكوب الذي وضع لرصد الكواكب والنجوم، أو كمن يريد رؤية الكواكب والنجوم عبر استخدامه للميكرسكوب الذي صنع لاستكشاف الجراثيم والمكروبات.

وانطلاقاً من ذلك يمكننا القول: إن من يجعل مسألة اثبات وجود الخالق وعدمه مسألة خاضعة لحدود الحسّ ومدركاته، يخطيء في تشخيص طبيعة الموضوع الذي يريد دراسته والحكم عليه بالإثبات أو النفي ؛ أضف إلى ذلك أن الانسان يتوفر على العقل الذي هو حاكم على الحسّ ومصحح

لكثير من مدركاته ومعلوماته، ولا ريب ولا شك أن العقل لا يستطيع أن يتنكر للبراهين الساطعة التي تجبره على الاعتراف بحقيقة وجود الخالق، وأنه لا سبيل لإنكار هذا الوجود إلاّ بتنكر الإنسان للحق والحقيقة والغائه كلّ قيمة وفضيلة لعقله.

ولا نريد في هذا المجال أن نستعرض الأدلة والبراهين التي أقيمت من قبل الموحدين والمؤمنين بوجود الخالق على وجوده، لأننا نعتقد أن الجدال في وجود الله تعالى لا يمثل شبهة عقلية بقدر ما يمثل مرضاً نفسياً بحاجة إلى معالجة طبية نفسانية لا إلى استدلال فكري وبرهنة عقلية، وما يعنيننا في هذا المجال هو محاولة استعراض المنهج المعرفي الذي سلكه أئمة أهل البيت عليهم السلام فى التدليل على وجود الخالق ومحاولة التعرف عليه، باعتباره المنهج الذي مايز بين الأئمة عليهم السلام وغيرهم من أصحاب الفرق، وهو في الوقت نفسه المنهج الذي طرحه القرآن الكريم في مجال التعرف على الخالق.

فنحن إذا ما أردنا التمعن في آيات الذكر الحكيم نجد أن الله عزّ وجلّ يؤكد على أن وجوده وحضوره هو بمثابة من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إلى استدلال وبرهنة، فهو مع كل شيء، وقريب من كل شيء، وهو شاهد على الأشياء والموجودات كلها، وهذه المعاني تفصح عنها الآيات التالية:

١ ـ قوله سبحانه: (وهو معكم أين ما كنتم) (الحديد: ٤).

٢ ـ قوله تعالى: (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) (الحديد: ١٦).

٣ ـ قوله سبحانه: (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) (غافر: ١٩).

٤ ـ قوله عزّ شأنه: (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون) (الأنفال: ٢٤).

٥ ـ قوله جلّ جلاله: (ألم ترَ أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم ولا خمسة إلاّ هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاّ هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) (المجادلة: ٧).

وحينما يصف الباري عزّ اسمه نفسه في القرآن الحكيم يعبّر عن نفسه بأنه «شهيد» على كل شيء فيقول: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) (فصّلت: ٥٣).

ففي هذه الآية الكريمة نجد الله تعالى يرشد إلى أنه سيتعرف إلى الخلق في الآفاق (الآيات الكونية)، وفي أنفسهم (الآيات الأنفسية)، ولكن تعرّف الإنسان على خالقه في كلا الحالين يتمّ من خلال آياته، وبالتعبير الفلسفي: ان هذا التعرّف هو إدراك للعلة عن طريق معلولاتها، ومن الواضح أن التعرف على المعلول لا يستدعي التعرف على تمام حقيقة العلة، فهذه المعرفة معرفة ناقصة، وأما المعرفة الأفضل والأتم فهي معرفة الشيء عن طريق ذاته، وهو المستوى الثاني والأرقى من المعرفة الذي عناه الجليل تعالى بقوله: (أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد)، فهذا المقطع القرآني يجعل الله عزّ وجلّ شهيداً على كل شيء، والشهيد هنا بمعنى الشاهد، أي أن الله تعالى هو الشاهد على كل شيء، وهو الذي تعرفت به الأشياء، لا أنه عُرِفَ بها وكانت هي الشاهد عليه.

وهذا المسلك في معرفة الخالق هو المسلك الذي أفصح أئمة أهل البيت عليهم السلام عن أنه المسلك الصحيح والسليم في المعرفة الإلهية، ولوضوح هذا المسلك عند الأئمة عليهم السلام وتبنيهم له فقد عقد محمد بن يعقوب الكليني (رحمه الله) باباً خاصاً في كتابه «الكافي» تحت عنوان: (باب أنه لا يعرف إلا به)، وقد أورد في هذا الباب الروايات الثلاث التالية:

١ ـ (عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: اعرفوا الله بالله، والرسول بالرسالة، وأولى الأمر بالأمر بالمعروف والعدل والإحسان)[1].

٢ ـ (عن علي بن عقبة بن قيس بن سمعان بن أبي ربيحة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله قال: سُئِل أمير المؤمنين عليه السلام:بم عرفت ربك؟ قال: بما عرّفني نفسه، قيل: وكيف عرّفك نفسه، قال: لا يشبهه صورة ولا يحس بالحواس ولا يقاس بالناس، قريب في بعده، بعيد في قربه، فوق كلّ شيء ولا يقال شيء فوقه، أمام كلّ شيء ولا يقال له أمام، داخل في الأشياء لا كشي داخل في شيء، وخارج من الأشياء لا كشي خارج من شيء، سبحان من هو هكذا ولا هكذا غيره ولكل شيء مبتدء)[2].

٣ ـ (عن منصور بن حازم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إني ناظرت قوماً فقلت لهم: إن الله جلّ جلاله أجلّ وأعزّ وأكرم من أن يُعرَف بخلقه بل العباد يُعرَفون بالله، فقال: رحمك الله)[3].

---

(١) الأصول من الكافي، ج ١، ص ٨٥.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

وأمّا في مناجات وأدعية أئمة أهل البيت عليهم السلام فإننا نعثر على هذا المعنى متكرراً بشكل واضح وبعبارات دقيقة ورائعة في أدائها ومضمونها، ففي دعاء الصباح المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام نجده يناجي ربه بالقول: (يا من دلّ على ذاته بذاته)[1].

وفي دعاء السحر الذي يقرأ في ليالي شهر رمضان المبارك، يناجي الإمام زين العابدين عليه السلام خالقه بالقول: (بك عرفتك وأنت دللتني عليك ودعوتني إليك، ولولا أنت لم أدرِ ما أنت)[2].

ويتركز هذا المعنى بصورة أقوى وأشدّ في فقرات دعاء الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام في يوم عرفة، إذ يقول عليه السلام:(إلهي علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك أن تتعرف إليَّ في كل شيء حتّى لا أجهلك في شيء).

ويضيف عليه السلام قائلاً: (إلهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار، فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك، كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتّى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك؟ ومتى بعدت حتّى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟ عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً).

ويختم عليه السلام دعاءه بالقول: (وأنت الذي لا إله غيرك، تعرّفت لكلّ

---

(١) عباس القمي: مفاتيح الجنان، دعاء الصباح، ص ٦٠، دار احياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، طبعة بلا تاريخ.

(٢) نفس المصدر، الدعاء المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي، ص ١٨٦.

شيء فما جهلك شيء، وأنت الذي تعرّفت إليَّ في كلّ شيء، فرأيتك ظاهراً في كلّ شيء، وأنت الظاهر لكلّ شيء، يا من استوى برحمانيته فصار العرش غيباً في ذاته، محقتَ الآثار بالآثار، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار، يا من احتجب في سرادقات عرشه عن أن تدركه الأبصار، يا من تجلّى بكمال بهائه فتحققت عظمته من الاستواء، كيف تخفى وأنت الظاهر؟ أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر؟ [(١)].

وعلى هذا الأساس يتضح لنا أن الأئمة عليهم السلام تبنوا في مجال التعرف على الذات المقدسة منهج معرفة الذات بالذات، أي أن الله تعالى ينبغي أن يُعرف بذاته لا بمعلولاته، وهذا المنهج حاول الأئمة عليهم السلام تأصيله والدعوة إليه في مجال التعرّف على الخالق باعتباره المنهج الأصح والأكمل عقلياً وفلسفياً، وإذا ما أردنا أن نعطي توضيحاً شاملاً لهذا الكلام فإننا نقول: إن الإنسان إذا ما أراد أن يتعرّف على حقيقة أي شيء من الأشياء فهو إما أن يدركه من خلال إدراكه لعلة ذلك الشيء، أو يدركه من خلال إدراكه معلول ذلك الشيء، أو أنه يدركه بذاته من دون أن يتوسط شيء في البين.

وهذه الطرق الثلاثة كما تواجهنا في محاولتنا للتعرف على الأشياء المحسوسة بحواسنا، كما في احساسنا بالمحسوسات من الأمور التي نشاهدها بأعيننا، أو نسمعها بآذاننا، أو نشمها بأنوفنا، أو نلمسها بأيدينا وجوارحنا، أو نذوقها بألسنتنا، وتواجهنا في محاولة التّعرّف على الأشياء المدركة بعقولنا من الأمور المعقولة، وتواجهنا في محاولة التّعرّف على الأمور الحاضرة

---

(١) تنظر هذه الفقرات من دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة في نفس المصدر السابق، ص ٢٦٠ – ٢٧٤.

بذواتها عندنا، كما في علمنا بأنفسنا ومشاعرنا وأحاسيسنا، فإننا بنفس هذه الطرق الثلاثة نحاول التّعرف على الخالق سبحانه وتعالى.

ولكن العقل حينما يتأمل في سلوك الإنسان لهذه الطرق الثلاثة في معرفة الخالق، يجد أن محاولة معرفة الخالق من خلال معرفة معلولاته ليست هي بالمعرفة الكافية ولا حتّى بالسليمة أيضاً، لأن معرفة المعلول والإحاطة به لا تستدعي ولا تستلزم معرفة علته والإحاطة بها، لأن وجود المعلول مترشح من وجود علته فكل كمال حاصل للمعلول لابد وأن يكون حاصلاً للعلة وبنحو أكمل وأتم، ولكن العكس غير صحيح، فليس كل الكمالات الحاصلة عند العلة هي عند المعلول حتماً، إذ ربما فقد المعلول بعض كمالات علته، ومن هنا لا يمكن أن تكون معرفة المعلول كافية للتعرف على العلة.

وأما محاولة التّعرّف على الخالق من خلال التعرّف على علته فهذا واضح البطلان والاستحالة، إذ فرضه خالقاً لكل شيء، وكون الأشياء كلها مخلوقاته، يمنع من أن يكون له علة وراء ذاته، إذ هو واجب الوجود بذاته، وفرض كونه واجب الوجود بذاته يحيل أن يكون له علة وأن يكون معلولاً لغيره ؛ وانطلاقاً من ذلك لا يبقى إلاّ الطريق الثالث وهو التعرّف عليه بذاته، وهو الطريق الذي أشار الأئمة عليهم السلام إلى أنه الطريق الصحيح في التعرّف على الخالق سبحانه وتعالى، فهو الذي دلّ على ذاته بذاته، وهذه هي الرتبة العليا من المعرفة، وإن كانت معرفته تعالى عن طريق معلولاته ممكنة إلاّ أنها معرفة ناقصة وهي الرتبة الدنيا من المعرفة، ولا شك أن للمعرفة مراتب ودرجات، ومن هنا جاء التعبير في مرويات الأئمة عليهم السلام أن لمعرفة الخالق عزّ وجلّ حداً أدنى كما أن لها حداً أعلى وهو

معرفته بذاته كما شرحنا ذلك، وأمّا الحد الأدنى من المعرفة فهو ما توضحه الأحاديث التالية عن الأئمة عليهم السلام والتي يرويها الكليني (رحمه الله) في أصول الكافي تحت عنوان: «باب أدنى المعرفة»:

١ ـ (عن الفتح بن يزيد، عن أبي الحسن عليه السلام قال: سألته عن أدنى المعرفة، فقال: الإقرار بأنه لا إله غيره، ولا شبه له ولا نظير، وأنّه قديم مثبت، موجود غير مفقود، وأنّه ليس كمثله شيء) [١].

٢ ـ (وسئل أبو جعفر عليه السلام عن الذي لا يجتزئ بدون ذلك من معرفة الخالق، فقال: ليس كمثله شيء، ولا يشبهه شيء، لم يزل عالماً سميعاً بصيراً) [٢].

٣ ـ (عن إبراهيم بن عمر قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن أمر الله كلّه عجيب، إلاّ أنّه قد احتج عليكم بما قد عرّفكم من نفسه)[٣].

٥ ـ المعرفة العلمية في المنهج العقيدي للأئمة عليهم السلام

ليس من الممكن تصور خطورة وأهمية أمر من الأمور في صياغة المسار الحياتي للانسان أكثر من خطورة وأهمية العقيدة، فالعقيدة في حياة ووجود الإنسان تمثل المصدر والمنبع لتصوراته العقلية عن ذاته ووجوده ووجود الآخرين، وهي في الوقت نفسه تصوغ قيمه الأخلاقية، وتتحكم في

---

(١) الأصول من الكافي، ج ١، ص ٨٦.

(٢) نفس المصدر، ح ٢.

(٣) نفس المصدر، ح ٣.

رسم مبادئ علاقاته الاجتماعية، وبعبارة أخرى يمكننا القول: إن للعقيدة دورها في صياغة الوجود الفردي والاجتماعي للإنسان ضمن مجالاتهما الثلاثة والمتمثلة في المجال العقلي المعرفي أولاً، وفي المجال الشعوري النفسي ثانياً، وفي المجال العملي السلوكي ثالثاً.

وتوضيح ذلك أن مجموع التصورات والأفكار التي يحملها الإنسان هناك مقدار منها يمثل رؤيته الوجودية لمسائل مهمة لا يمرّ العقل الإنساني بها من دون تفكير وتأمل فيها، ويعقب ذلك التفكير والتأمل اتخاذ موقف منها بالنفي أو الإثبات، أو يبقى الإنسان في حالة تشكيك وتردد من دون أن يستطيع الوصول إلى نتيجة حاسمة تجاه هذه المسائل المثارة في ذهنه.

والمسائل التي تستثير ذهن الإنسان وتشغله متعددة، منها مسألة الوجود، فالإنسان يتساءل عادة عن مصدر هذا الوجود الذي يعيشه ويحسّه، ويتساءل عن وجود ذاته كيف كان ولم كان، ومن تلك المسائل مسألة الموت والمصير النهائي للإنسان، ومنها مسألة الواجب والتكليف الذي يمكن أن يتعلق بالانسان بما هو موجود عاقل له غاية في أفعاله؛ وهذه الأسئلة الكثيرة تختصر جميعها في سؤال الإنسان نفسه هذه الأسئلة الثلاثة: من أين؟ وإلى أين؟ وفي أين؟

فالسؤال الأول سؤال عن المبدإ، والسؤال الثاني سؤال عن الغاية، والسؤال الثالث سؤال عن الطريق بين المبدإ والغاية؛ وبحث الإنسان عن إجابة لهذه الأسئلة الثلاثة يمثل ما يمكن أن نصطلح عليه بـ «العقيدة».

ومنه يتبيّن أن وجود العقيدة وفاعليتها في حياة الإنسان لا يمكن أن ينطلقا من فراغ أو أن يكونا بلا مبرر، وحتّى تغاضي الإنسان وتناسيه

البحث عن أجوبة مقنعة ومحددة لهذه الأسئلة، لا يمكن أن ينفي الواقعية والموضوعية التي تنطوي عليها هذه الأسئلة في حد ذاتها، بل وحتى الإجابة النافية لمضمون هذه الأسئلة الثلاثة لا يمكن أن تمثل في حد نفسها برهاناً على عدم أهمية العقيدة في حياة الإنسان، وأنها مجرد أمر هامشي له قيمته وفاعليته في حياة الشعوب البدائية وغير المتحضرة، ولكنه يفتقد أيّة قيمة وفاعلية في حياة الشعوب المتحضرة والمتطورة، بل ربّما يكون لهذا الأمر دلالته العكسية، فتهرّب فرد ما أو شعب ما عن الإجابة على هذه التساؤلات والتغافل عنها من خلال انكار ضرورتها، يفصح عن عجز عن مواجهة تساؤلات الواقع الملحة والنهائية، واشغال النفس بالمقابل بهموم حياتية مؤقتة، يمكن أن تستوعب اهتمام الإنسان مادام في هذه الحياة الدنيا، ولكنها لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن تستوعب الوجود الإنساني بكل أبعاده وامتداداته الوجودية والعقلية، إذ ليس هناك ما يثبت ويدلل على أن وجود الإنسان وجود لا يتجاوز في امتداده وسعته امتداد وسعة هذا العالم المادي الذي يعيشه الإنسان مقيداً فيه بحدود الزمان والمكان والمادة.

وللأهمية التي تحظى بها هذه الأسئلة أرادت الأديان الإلهية أن تقدّم للإنسان من خلال بعدها العقيدي وتصوراتها عن الوجود والحياة والمصير والمسؤولية الإنسانية رؤية علمية واقعية بعيدة عن السذاجة والخرافة والتشويش ؛ وهذه الرؤية ذات الطابع العلمي نجدها متمثلة أفضل تمثيل في آخر الكتب الإلهية التي أنزلها الباري سبحانه وتعالى على خاتم الإنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله.

فلقد اهتم القرآن الكريم بتقديم رؤية علمية عن مسائل العقيدة، وحينما

نقول إنها رؤية علمية فهذا يعني أنها تستبعد الظن والوهم والخيال فيما تريد تبنّيه من أفكار ورؤى، فليس هناك مجال للظن أو الوهم أو الخيال في متبنيات العقيدة، وهذا ما يشدد الذكر الحكيم التأكيد عليه في العديد من آياته عبر المقارنة المستمرة بين الفكرة العقيدية التي حملها وبشّر بها الأنبياء والرسل عليهم السلام، وبين الأفكار العقيدية التي كان يتبناها أقوامهم وأممهم قبل قبولهم بدعوات الرسل والأنبياء عليهم السلام.

فحينما يتحدث القرآن المجيد عن أجواء المواجهة بين نبي الله إبراهيم عليه السلام وقومه يقول في مجال الإفصاح عن مضمون المعرفة العلمية التي كان يلتزمها إبراهيم عليه السلام في دعوته لقومه: (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين * وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين * فلمّا جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلمّا أفل قال لا أحب الأفلين * فلمّا رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلمّا أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكوننّ من القوم الضالين * فلمّا رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلمّا أفلت قال يا قومِ إني بري مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين * وحاجّه قومه قال أتحاجّونى في الله وقد هدانِ ولا أخاف ما تشركون به إلاّ أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كلّ شيء علماً أفلا تتذكرون * وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنّكم أشركتم بالله ما لم ينزّل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون * وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء

إن ربك حكيم عليم) (الأنعام: ٧٤ ـ ٨٣).

إن الله عزّ وجلّ يعبّر عن مضمون الكلام الذي حاجّ به إبراهيم قومه بأنه «حجتنا»، وإبراهيم عليه السلام يرفض عقيدة قومه مبرراً ذلك بأن تلك العقيدة لم ينزل بها الله تعالى «سلطاناً»، فليس هناك من مبرر عقلي أو علمي للإيمان بها، وهذان التعبيران يفتحان أعيننا على أن الأساس الذي تبتني عليه العقيدة هو المعرفة العلمية، فالعقيدة لابد أن تتوفر على صفة «الحجية» أي ما يصح أن يحتج به على الخصم والطرف المقابل، وهذا لا يتأتى للعقيدة إلاّ حينما تمتلك سلطاناً تتمكن من فرضه على العقل والوجدان، وسلطان العقيدة إنما يأتيها من منطقها العلمي الذي تنطوي عليه وتستبطنه، وحينما تكون العقيدة معرفة علمية تحاكي الواقع وتكشف عنه فهي تفرض نفسها على العقل والقلب بنفسها من دون أن تتوسل في فرض هيمنتها بقوة خارجة عن ذاتها غير قوة الإقناع والصدق والحكاية عن الحق والحقيقة، وهذا هو «السلطان» الذي تمتلكه العقيدة القائمة والمؤسسة على المعرفة العلمية.

ولأن العقيدة التي لا تبنى على المعرفة العلمية هي عقيدة فاسدة ومناقضة للحق والحقيقة، وهي في حقيقة الأمر نتاج التفكير المنحرف للإنسان، والذي لا يريد أن يلتزم أيّة ضابطة من ضوابط العقل والعلم، فإن الدين القائم على العقل والعلم يرفض أن يتساهل مع هذه العقيدة وأن يسمح لها بأن تتواجد وأن تفعل في عقل ومشاعر وحركات الأفراد والجماعات، وهو الأمر الذي يبرر تلك الحملة الشعواء التي ما برح القرآن الكريم يشنها على أصحاب العقائد الفاسدة من الكافرين والمشركين، وهو في ذلك يندفع من الاعتقاد بأن الإنسان الكافر والمشرك يستلب ويصادر حقاً من أهم حقوقه الإنسانية والطبيعية

حينما يكفر أو يشرك بالله في الوقت الذي يصادر حقاً أولياً ثابتاً لله عزّ وجلّ وهو حق التسليم بوجوده وتوحيده وعبادته، وهذا الثبوت المُسَلَّم لهذا الحق الإلهي يرشد إليه القرآن الكريم بقوله تعالى:

١ ـ (إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يُشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً) (النساء: ٤٨).

٢ – (إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يُشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً) (النساء: ١١٦).

٣ ـ (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يُشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) (المائدة: ٧٢).

٤ ـ (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) (لقمان: ١٣).

٥ ـ (ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) (الزمر:٦٥ـ٦٦).

ولأن العقيدة الفاسدة والمنحرفة لا يمكن أن تنطلق من موقف علمي، ولا يمكن أن تنسجم مع أيّ مبدإ من مبادئ المعرفة العلمية، فهي لا تعدو أن تكون تخبطاً في الظلمات، وتخرصاً بغير علم وفهم، وهذا ما يستوجب أن يصف الله عزّ اسمه الكافرين بقوله: (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتّى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب * أو كظلمات في بحر لجيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده

لم يكد يراها ومن لم يجعل الله نوراً فما له من نـور) (النـور: ٣٩ – ٤٠)، وأن يصف المشركين بقوله: **(.. ومن يشرك بالله فكأنّما خـرّ مـن السـماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق)** (الحج: ٣١).

واستناداً إلى هذا المبدإ نفسه لا يمكن أن تمتلك العقيدة الفاسدة أيّ مبرر عقلي أو طبيعي لفرض نفسها علـى عقـل الإنسـان، وبتعبـير آخـر ليـس للعقيدة الفاسدة أو لا ينبغي أن يكـون لهـا أيّ سـلطان علـى عقـل وقلـب وحركة الإنسان، وذلك لأن مضمون العقيدة الفاسـدة لا يمكـن أن ينبـني ويتأسس إلاّ على الوهم والغاء مهمة ودور العقل، وهذا المعنـى يرشـد إليـه القرآن الكريم حينما يحكي خطاب نبي الله يوسف عليه السلام مع صاحبيـه في السجن، إذ يخاطبهما بالقول: **(ما تعبدون من دونه إلاّ أسماءً سميتموهـا أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلاّ لله أمـر ألاّ تعبـدوا إلاّ إيّاه ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)** (يوسف: ٤٠).

ولأن المعرفة العلمية لا يمكن أن تتصف بها العقيدة إلاّ حينما تتواصـل مع الحق والحقيقة فقد جعل الله تعالى الميزان في قبول العقيدة ورفضها هو انتسابها إلى الله أو انقطاعها عنه، وذلك لأن الله هو الحـق المطلـق الـذي لا يشوبه ولا ينتسب إليه باطل، ومن ثَمّ فهو الـذي يتوفـر علـى الصلاحيـة المطلقة في الهداية إلى الحق، ولا يمكن أن يستحصل الهدى والعلم والمعرفـة من طريق غير الطريق الذي ينصبه الله تعالى تكوينياً كما هو الأمر بالنسـبة إلى العقل أو تشريعاً كما هو الأمـر بالنسـبة إلى النـبي والإمـام المعصـوم (عليهما السلام)، وانحصار تحصيـل الهـدى والعلـم والمعرفـة في ارتبـاط الإنسان بالله يفصح عنه الذكر الحكيم حينما يقول:

١ ـ (والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صـــراط مســتقيم) (يونس: ٢٥).

٢ ـ (فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلاّ الضلال فأنّى تصرفون) (يونس: ٣٢).

٣ ـ (.. من يهدِ الله فهو المهتدِ ومن يضلل فلن تجـد لـه وليـاً مرشـداً) (الكهف: ١٧).

٤ ـ (.. ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) (النور: ٤٠).

وحينما يتوافق العقل البشري والنص الإلهي على أن الله تعالى هو الحق المطلق فلا مناص حينئذ من التسليم بـأن الحـق في فـرض ديـن وتشـريع عقيدة للإنسان يتعبد بها ويلتزم بمقتضاها هو حق مـن حقـوق الله تعـالى المختصة به والتي لا يحق لغيره أن ينازعه فيه، وهو المبدأ الذي يبيّنــه عـزّ وجلّ بقوله في الآيات التالية:

١ ـ (شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والـذي أوحينـا إليـك ومـا وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيمـوا الديـن ولا تتفرقـوا فيـه..) (الشورى: ١٣).

٢ ـ (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) (المائدة: ٤٨).

٣ ـ (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذيــن لا يعلمون) (الجاثية: ١٨).

وبعد أن توضّحت لنا معالم المعرفة العلمية للعقيـدة كمـا يتعـرّف عليـها العقل ويهدي إليها الوحي فلنحاول أن نتعرّف على كلمات أئمـة أهـل البيـت عليهم السلام في الدعوة لتأسيس العقيدة بالانطلاق مـن مقتضيـات المعرفـة

العلمية ومتطلباتها ؛ ولقد تعرّفنا فيما مضى على الدور الذي أعطاه الأئمة عليهم السلام للعقل في تأسيس العقيدة، ولا شك أن تأسيس العقيدة بالانطلاق من العقل وبالاستناد إلى أحكامه يمثل أول وأهم مبدإ من مبادئ المعرفة العلمية، ويفصح الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام في وصيته المطولة لهشام بن الحكم عن العلاقة الوثيقة التي تربط بين العقل والتعقل عن الله وبين تحصيل المعرفة العلمية الثابتة، إذ يقول: (إنّه لم يخف الله من لم يعقل عن الله، ومن لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة يبصرها ويجد حقيقتها في قلبه..)[1]، فالإمام الكاظم عليه السلام يريد أن يقول في هذه الكلمة إن العقل إذا لم يتواصل مع الله الذي يمثل الحق المطلق والنور التام والأتم والذي هو ملهم الحقيقة والهادي إليها فإنه لا يمكن أن يتوفر على معرفة ثابتة ومستقرة عمادها اليقين وأساسها الوضوح، بل يظلّ العقل في اضطراب وتشوش من دون أن يصل إلى نتيجة حاسمة وقطعية.

والمبدأ الآخر من مبادئ المعرفة العلمية الذي دعا أئمة أهل البيت عليهم السلام للالتزام به في البعد العقيدي هو تأسيس العقيدة على أساس العلم وحده، فلا مجال للظن أو الشك أو الوهم في العقيدة، وتأسيس العقيدة انطلاقاً من العلم هو ما يقتضيه الالتزام بالمبدإ الأول من مبادئ المعرفة العلمية ـ أعني تأسيس العقيدة استناداً إلى العقل ـ فالعقل والعلم قرينان، إذ العقل لا يجد سكونه واطمئنانه إلا حينما يجد العلم ويبني معرفته عليه، وهو الأمر الذي يكشف عنه الإمام الكاظم عليه السلام في نفس وصيته السابقة لهشام حينما يتحدث قائلاً: (يا هشام إن العقل مع العلم فقال ـ أي

---

(١) الأصول من الكافي، ج ١، ص ١٨.

الله تعالى ـ: «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلاّ العالمون»[1]) [2].

واقتران العقل بالعلم والدين تحدّث عنه الأئمة عليهم السلام في العديد من مروياتهم، والتي أفصحت أن العقل إذا ما توفر عليه الإنسان والتزم به فإنه لا مناص من أن يهديه إلى العلم، والعلم إذا ما توفر عليه الإنسان لا مناص من أن يهديه إلى خالقه ويعرّفه عليه، وهذه العلاقة المستحكمة بين العقل والعلم والدين يكشف الإمام الصادق عليه السلام عن أبعادها في روايتين، الأولى مختزلة، والثانية مفصلة، أما الرواية الأولى فيقول فيها: (من كان عاقلاً كان له دين، ومن كان له دين دخل الجنة)[3].

وأما الرواية الثانية والتي تسترسل في بيان وشرح أبعاد العلاقة بين كل من العقل والعلم والدين فهي ما يرويه الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام من قوله في حديث طويل: (أن أول الأمور ومبدأها وقوّتها وعمارتها التي لا ينتفع شيء إلاّ به، العقل الذي جعله الله زينة لخلقه ونوراً لهم، فبالعقل عرف العباد خالقهم، وأنّهم مخلوقون، وأنّه المدبر لهم، وأنّهم المدبَّرون، وأنّه الباقي وهم الفانون؛ واستدلوا بعقولهم على ما رأوا من خلقه، من سمائه وأرضه، وشمسه وقمره، وليله ونهاره، وبأن له ولهم خالقاً ومدبراً لم يزل ولا يزول، وعرفوا به الحسن من القبيح، وأن الظلمة في الجهل، وأن النور في العلم، فهذا ما دلهم عليه العقل.

قيل له: فهل يكتفي العباد بالعقل دون غيره؟

---

(١) العنكبوت: ٤٣.

(٢) الأصول من الكافي ج ١، ص ١٤.

(٣) نفس المصدر، ص ١١، ح ٦.

قال: إن العاقل لدلالة عقله الذي جعله الله قوامه وزينته وهدايته، علم أن الله هو الحقّ، وأنه هو ربه، وعلم أن لخالقه محبة، وأن له كراهية، وأن له طاعة، وأن له معصية، فلم يجد عقله يدلّه على ذلك، وعلم أنّه لا يوصل إليه إلاّ بالعلم وطلبه، وأنّه لا ينتفع بعقله، إن لم يصب ذلك بعلمه، فوجب على العاقل طلب العلم والأدب الذي لا قوام له إلاّ به)[1].

وممّا اعتبره الأئمة عليهم السلام منافياً لروح المعرفة العلمية هو القول بغير علم، إذ ما يستدعيه التزام الإنسان بالمعرفة العلمية أن لا يتجاوز حدود علمه فيما يؤمن به من فكرة أو يتعبد به من عقيدة، والتزام الإنسان بهذا المبدإ يكشف عن اخلاصه للعلم واحترامه لعقله، وفي الوقت نفسه يكشف عن رغبة الإنسان في الالتزام بالحق الذي يفرض عليه أن لا يتكلم خارج اطار ما يعرف ويعلم، وفي هذا الشأن يقول زرارة بن أعين: (سألت أبا جعفر عليه السلام ما حق الله على العباد؟ قال: أن يقولوا ما يعلمون، ويقفوا عند ما لا يعلمون)[2].

وعن هشام بن سالم قال: (قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما حقّ الله على خلقه؟ فقال: أن يقولوا ما يعلمون، ويكفّوا عما لا يعلمون، فإذا فعلوا ذلك فقد أدّوا إلى الله حقّه)[3].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: (إن الله خصّ عباده بآيتين من كتابه: أن لا يقولوا حتّى يعلموا، ولا يردّوا ما لم يعلموا، وقال عزّ وجلّ: «ألم

---

(١) نفس المصدر، ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) نفس المصدر، ص ٤٣، ح ٧.

(٣) نفس المصدر، ص ٥٠، ح ١٢.

يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلاّ الحق»[1] وقال: «بل كذّبوا بما لم يُحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله»[2])[3].

وخاطب الإمام الصادق عليه السلام بعض أصحابه بقوله: (أنهاك عن خصلتين فيهما هلاك الرّجال: أنهاك أن تدين الله بالباطل، وتفتي النّاس بما لا تعلم)[4].

والأمر الآخر الذي أشار الأئمة عليهم السلام إلى أنه يتنافى وطبيعة المعرفة العلمية هو محاولة تأسيس العقيدة استناداً إلى التقليد والمحاكاة للآخرين وأفكارهم مما يفقد الإنسان ممارسة أيّ دور في الاستفادة من عقله وتفكيره، ولا شك في أن استلاب الإنسان لعقله أو عقل غيره هو أمر يستقبحه العقل ولا يمكن أن يرتضيه الشرع الذي جاء مكرّماً للإنسان بما هو موجود عاقل ومفكّر، ولقد ذمّ القرآن الكريم ظاهرة التقليد والمحاكاة لأفكار وعقائد الآخرين، والتي لا يمكن أن تتأسس على أيّ مبرر عقلي غير رضى المقلِّدين بمصادرة عقولهم وتعطيل قدراتهم المعرفية والفكرية، فقال عزّ شأنه: (**وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون**) (المائدة: ١٠٤)، وقال سبحانه وتعالى في حكاية ما قاله أنصار فرعون لموسى عليه السلام: (**قالوا أجئتنا لتلفتنا عمّا وجدنا عليه آباءنا..**) (يونس:

---

(١) الأعراف: ١٦٩.

(٢) يونس: ٤٠.

(٣) الأصول من الكافي، ص ٤٣، ح ٨.

(٤) نفس المصدر، ص ٤٢، ح ١.

٧٨)، وقال تعالى في بيان حوار نبيه إبراهيم عليه السلام مع المشركين وجوابهم له: (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنّا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) (الأنبياء: ٥١ ـ ٥٣).

وفي سورة الشعراء نجد الله عزّ وجلّ يستعيد التذكير بقصة إبراهيم عليه السلام مع الإشارة إلى الاستدلال العقلي الذي طرحه إبراهيم عليه السلام في مقام الاعتراض على اتخاذ قومه الأصنام والتماثيل آلهة من دون الله، إذ يقول سبحانه: (واتلُ عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناماً فنظلّ لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرّون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) (الشعراء: ٦٩ ـ ٧٤)، فحينما يتساءل إبراهيم عليه السلام عن المبرر لعبادة هذه التماثيل التي هم عليها عاكفون، لا يجد جواباً منهم غير تبرير ذلك بأنه اتباع لعادة الآباء، في الوقت الذي لا يمتنعون من القول بكل صراحة إن هذه التماثيل لا تستجيب دعاءهم ولا تملك لهم ولا لنفسها ضراً ولا نفعاً، مما يعني أنها لا تتوفر على أيّة خصيصة من خصائص الآلهة، ولذا يعود إبراهيم عليه السلام بعد ذلك ليقول لهم بكل حزم إنه قد قرّر أن يتخذ هذه الآلهة المزعومة عدواً له، ويُفرِد الربَّ الحقيقي بالعبادة، لأنه الوحيد الذي خلقه ويهديه، وهو الوحيد الذي يرزقه ويشفيه ويميته ويحييه، وهذا ما يفصح عنه تعالى فيما حكاه من قول إبراهيم عليه السلام: (قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لي إلاّ رب العالمين * الذي خلقني فهو يهدين * والذي هو يطعمني ويسقينِ *

وإذا مرضت فهو يشفينِ * والذي يميتني ثم يحيينِ * والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) (الشعراء: ٧٥ ـ ٨٢).

إننا هنا أمام منهج قرآني عقلي يريد أن يعلّم الإنسان أن يكون رافضاً للتقليد غير القائم على بصيرة وهدى، وهو الأمر الذي يستعيد الأئمة من أهل البيت عليهم السلام التذكير به من خلال أحاديثهم وأقوالهم في ذم التقليد والتحذير منه، ونكتفي في هذا المجال ببيان التوضيحات التي رويت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في مقام تفسير قوله تعالى في شأن ذم أهل الكتاب من اليهود والنصارى: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله..) (التوبة: ٣١)، إذ يحدّث أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام بقوله: (قلت له: «اتخذوا احبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله»؟ فقال: أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم ولو دعوهم إلى عبادة أنفسهم ما أجابوهم، ولكن أحلّوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون)[1].

وعن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (سألته عن قول الله: «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله» قال: أما أنهم لم يتخذوهم آلهة، إلاّ أنهم أحلوا حلالاً وأخذوا به، وحرّموا حراماً فأخذوا به فكانوا أربابهم من دون الله) [2].

ومن خلال هذا الاستعراض لقواعد المعرفة العلمية ومنافياتها في كلمات

---

(١) السيد هاشم الحسيني البحراني: البرهان في تفسير القرآن، ج ٢، ص١٢٠، ح ١، مؤسسة اسماعيليان للطباعة، إيران ـ قم، الطبعة الثالثة، بلا تاريخ.

(٢) عبد علي بن جمعة الحويزي: تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢٠٩، مؤسسة اسماعيليان للطباعة، إيران ـ قم، طبعة بلا تاريخ.

أئمة أهل البيت عليهم السلام اتضح لنا الاهتمام الذي أولاه الأئمة عليهم السلام لقضية تأسيس العقيدة على أساس علمي في كلياتها وجزئياتها، ورفض الاعتماد في تكوينها على أيّ مبدإ غير علمي، وهذا التأسيس العقلي والعلمي لمضامين العقيدة من قبل الأئمة عليهم السلام لم يكن في جانب من جوانب العقيدة أو في بعد من أبعادها، بل كان الأئمة عليهم السلام يرون أن العقيدة ينبغي أن تتأسس كل مقولاتها بالاستناد إلى العقل والعلم وحدهما، ويجب أن تبقى بعيدة عن التقليد الأعمى ومداخلة الأهواء الذاتية والظنون الشخصية.

وإذا ما تأسست العقيدة على هذه الضوابط وخلصت من تلك المنافيات فحينئذ تتم مهمة أسلمة الذات في المجال العقيدي، وهي المهمة الأولى على طريق بناء الذات الإنسانية بناء إسلامياً مستوعباً ومتكاملاً، وهو البعد الذي أشار إليه نبي الله إبراهيم عليه السلام حينما قال: (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين) (الأنعام: ٧٩).

وبهذا ننتهي من الحديث عن معالم منهج الأئمة عليهم السلام في التغيير العقيدي، وننتقل بالكلام الآن إلى محاولة بيان معالم منهجهم عليهم السلام في التغيير النفسي والبناء الشعوري للذات المسلمة ضمن مشروعهم الهادف إلى تحقيق مهمة الأسلمة في كل أبعاد الذات الإنسانية التي تستهدفها عملية الإصلاح والتغيير التي أراد الأئمة عليهم السلام تحريك الواقع الإنساني باتجاه تحقيق أهدافها والوصول إلى غاياتها.

الفصل الثاني

منهج الأئمة في التغيير النفسي

في بداية حديثنا عن معالم ومشخصات المنهج الذي سلكه أئمة أهل البيت عليهم السلام في مجال التغيير النفسي والبناء الشعوري للذات الإنسانية، لابد أن نعي أن مهمة البناء النفسي لا يمكن أن تتم بمعزل عن مهمة البناء العقيدي التي تحدثنا عنها في الفصل المتقدم، وذلك لأننا ندرك أن هناك ارتباطاً وثيقاً وعلاقة مستحكمة بين الفكر والمشاعر أو بتعبير آخر: بين العقل والعاطفة ؛ وكذا بين العقل والعاطفة والسلوك، ولذا كان من المهم جداً لأىّ مبدإ أو معتقد يستهدف بناء الذات الإنسانية بناءً متكاملاً أن يتوفر على رؤية تغييرية تربط بين العقل والعاطفة من جهة، وبين هذين الاثنين والعمل أو السلوك من جهة أخرى، ولأجل ذلك كان «الإيمان» اعتقاداً وقولاً وعملاً، ولا يمكن أن يتحقق الإيمان الكامل لشخص ما إذا ما اقتصر على مستوى واحد من تلك المستويات، وفي المقابل أيضاً ـ وبحسب هذا الفهم ـ يتعدّى الشرك مستوى العقيدة ليشمل بُعد العاطفة وبعد الممارسة، فكما أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل فكذلك الشرك اعتقاد وقول وعمل.

وبهذا الاعتبار المتقدم سيتأسس بحثنا عن المنهج التغييري للأئمة عليهم السلام في المجال النفسي على محاولة اكتشاف طبيعة الربط الذي أكدّ عليه الأئمة عليهم السلام في مجال العلاقة بين كل من العقيدة والمشاعر والسلوك، وسيكون البحث ضمن النقاط التالية:

١ ـ العلاقة الجدلية بين الإيمان والشرك

إذا ما أردنا أن نستنطق القرآن الحكيم في هذا الشأن فسنجد أنه يتحدث بكل صراحة عن مستويات متعددة للتصديق والإيمان بالرسالة، كما أنه يتحدث عن مستويات مختلفة للشرك والجحود بالله والتكذيب بآياته؛ فبالنسبة إلى الآيات التي تدلّ على أن الإيمان يقبل الزيادة والنقيصة والتغيير والتبديل نقرأ قوله تعالى:

١ ـ (إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) (الأنفال: ٢).

٢ ـ (ولمّا رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلاّ إيماناً وتسليماً) (الأحزاب: ٢٢).

٣ ـ (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم * والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) (محمد: ١٦ ـ ١٧).

٤ ـ (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى...) (مريم: ٧٦).

إن هذه الآيات جميعها تشير إلى زيادة الإيمان الذي يفيضه الله عزّ شأنه على المؤمنين نتيجة ما يبدونه من خشوع واستسلام وامتثال وطاعة لأوامره، وفي المقابل فإن الذكر الحكيم يتحدث عن النتائج السلبية التي تنعكس على نفسية المعاندين والعصاة نتيجة أعمالهم ومواقفهم، والتي أهمها تعنتهم واصرارهم على الكفر، فيتحدث عنهم قائلاً:

١ ـ (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيّكم زادته هذه إيماناً فأما

الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) (التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥).

٢ ـ (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاّ خساراً) (الإسراء: ٨٢).

٣ ـ (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون) (آل عمران: ٩٠).

ومن خلال هاتين المجموعتين من الآيات يتضح لنا أن الإيمان والتوحيد من جهة والكفر والشرك من جهة أخرى يتواردان على قلب الإنسان بحسب ما يتوفر عليه الإنسان من عوامل الثبات والاستقرار في العقيدة، أو عوامل التزلزل وعدم الثبات فيها، ونجد في القرآن الكريم تصريحاً بتوارد حالتي الإيمان والكفر على قلب الإنسان، وذلك حينما يقول تعالى: (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً) (النساء: ١٣٧).

ولقد تبنّى أئمة أهل البيت عليهم السلام نفس هذه الرؤية القرآنية فيما يرتبط بزيادة ونقيصة الإيمان والكفر وتواردهما على قلب الإنسان، وكون كل منهما يطرد الآخر وينفيه، فكلما زاد إيمان الإنسان بخالقه وقوي اعتقاده به كلما ضعف الشرك والكفر وانحسرا عن قلبه، ولكن ليس من الضروري أن يستطيع الإنسان التخلص من كل درجات الشرك ومراتبه بمجرد إظهار إيمانه بالله عزّ وجلّ، لأن كل مرتبة من الإيمان يتوفر عليها الإنسان إنما تنفي وتطرد تلك الدرجة من الشرك التي تقابلها، مما يعني إمكانية اجتماعها مع رتبة أخرى من الشرك، ولذا قال تعالى في مقام بيان

هذه الحقيقة المهمة: (وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون) (يوسف:١٠٦).

ولقد وردت عدّة أحاديث عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في تفسير وإيضاح المقصود من هذا البيان الإلهي الذي أشارت إليه الآية المتقدمة، ففي حديث عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير معنى الآية المذكورة قال: (شرك طاعة ليس بشرك عبادة، والمعاصي التي يرتكبون فهي شرك طاعة أطاعوا فيها الشيطان، فأشركوا بالله في الطاعة لغيره، وليس بإشراك عبادة أن يعبدوا غير الله)[١].

وما يمكن لنا أن نلاحظه في مرويات أئمة أهل البيت عليهم السلام بشأن هذه الآية المباركة هو محاولة تسليط الضوء على المراتب الخفية وغير المعروفة من الشرك، فمعظم الناس تتصور أن الشرك يعني أن يتخذ الإنسان إلهاً آخر مع الله، بأن يعتقد بوجود رب سوى الله عزّ وجلّ، فجاءت أحاديث الأئمة عليهم السلام لتقول للإنسان إن ذلك مظهر ومستوى من مظاهر ومستويات الشرك، ولكن للشرك بالله مستويات ومظاهر أخرى متعددة ومتنوعة، وكثيراً ما تخفى على الإنسان، ولقد أفصحت مرويات الأئمة عليهم السلام عن بعض هذه المستويات والمظاهر الخفية للشرك، كما في هذا الخبر الذي يرويه العيّاشي في تفسيره عن الإمام الصادق عليه السلام (فعن مالك بن عطية عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: «وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون» قال: هو الرجل يقول: لولا فلان لهلكت، ولولا فلان لأصبت كذا وكذا، ولولا فلان لضاع عيالي؛ ألا ترى أنه

---

(١) بحار الأنوار: ج ٧٢، ص ٢١٤، ح ٩٣.

قد جعل لله شريكاً في ملكه يرزقه ويدفع عنه، قال: قلت: فيقول: لولا أن الله منّ عليّ بفلان لهلكت؟ قال: نعم لا بأس بهذا) [1].

والتفات الأئمة عليهم السلام إلى مظاهر الشرك ومستوياته المتعددة والمتنوعة وتحذيرهم الناس من الوقوع فيها والتلبس بها، يعطي دلالة واضحة على طبيعة المسار التوحيدي الذي عمل أئمة أهل البيت عليهم السلام على تثبيت جذوره وترسيخ قواعده في نفوس الناس، وإذا كنّا تحدثنا في الفصل السابق عن التوحيد والإيمان بالله بما هما معرفة عقلية وعلمية، أي بلحاظهما بما هما من شؤون الفكر والعقل، فإن ما يعنينا الحديث عنه في هذا الفصل وفي هذه النقطة منه هو الحديث عن الإيمان والشرك بما هما حالتان من أحوال النفس، فالإيمان والشرك ليسا مجرد اعتقادين عقليين لا ارتباط لهما بالنفس وأحوالها، بل هما ـ وكما أشرنا فيما سبق ـ يتمظهران في العقيدة التي محلها العقل والفكر، وفي المشاعر والأحاسيس التي محلها القلب، وفي الممارسة التي محلها الجوارح وأعضاء البدن.

والرواية المتقدمة عن الإمام الصادق عليه السلام تلقي لنا ضوءً على بعد نفسي من أبعاد الشرك، وذلك حينما يرى الإنسان ـ من موقع الغفلة والجهل ـ أن الخير الذي أصابه أو أن الشر الذي دُفع عنه كان بسبب فلان من الناس، ناسياً أن الضار النافع ومن بيده كل شيء ليس سوى الله تعالى كما حكى القرآن ذلك حينما قال على لسان نبي الله إبراهيم عليه السلام: (الذي خلقني فهو يهدين * والذي هو يطعمني ويسقينِ * وإذا مرضت

---

(١) العيّاشي: تفسير العيّاشي، ج ٢، ص ٢٠٠، المكتبة العلمية الإسلامية، إيران ـ طهران، بلا تاريخ.

فهو يشفينِ * والذي يميتني ثم يحيينِ * والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) (الشعراء: ٧٨ ـ ٨٢).

نعم ما ينبغي للإنسان في الوقت الذي يرى أن الأسباب كلها بيد الله عزّ وجلّ، أن ينظر إلى بقية الموجودات بما هي مخلوقات لله منحها الحول والقوة، وليس بشيء منها ذاتي لها، ولأجل ذلك كان القرآن الكريم دائماً يذكر الإنسان المفتون بقدرته وقوته وكل كمالاته الشخصية أن مبدأ هذه الكمالات هو الله تعالى، وكما أعطاها للإنسان فهو قادر على سلبها في أيّة لحظة من اللحظات، وهذا المعنى نبهنا الذكر المجيد عليه عبر قوله تعالى:

١ ـ (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) (الحج: ٧٣).

٢ ـ (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلاّ ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لا ستكثرت من الخير وما مسني السوء..) (الأعراف: ١٨٨).

٣ ـ (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزّ من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير * تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحيّ من الميت وتخرج الميت من الحيّ وترزق من تشاء بغير حساب) (آل عمران: ٢٦ ـ ٢٧).

لقد أرادت هذه البيانات القرآنية أن توحي للإنسان بضرورة العمل على تطبيق اعتقاداته على حركة أحاسيسه ومشاعره وكذا ممارساته وتصرفاته، فمادام لا يعتقد على مستوى العقيدة بأيّ إله سوى الله سبحانه وتعالى، فإن عليه أن يوصل الإيمان بهذه الحقيقة العقلية إلى قلبه،

فلا يجعل في قلبه مجالاً لشريك آخر مع الله، وهكذا يتحـــدد الموقـف الـذي أراده الإسلام من الإنسان المؤمن بربه في تطهير كل منـــاحي وجـوده مـن لوث الشرك حتى يكون مصداق الإنسان الطاهر المطـهر في عقلـه وتفكـيره أولاً، وفي مشاعره وقلبه ثانياً، وفي جوارحه وتصرفاته ثالثاً، وهذا المستوى من الإيمان هو الذي يدفع عن الإنسان كل مبررات الخوف مـــن عـذاب الله والخشية من التقصير في حق الله سبحانه وتعالى، ومن خلال توفر الإنسان عليه يأتي آمناً مطمئناً يوم القيامة، ولذا قال تعالى: (**يوم لا ينفـــع مـال ولا بنون * إلاّ من أتى الله بقلب سليم**) (الشعراء: ٨٧ ـ ٨٨).

وهذا القول حكاه الله عزّ وجلّ على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام فيما دعا به ربّه، وهذا العبد المخلص لله تعالى الذي آمـن بـالله بحقيقـة الإيمـان فرأى أن الله تعالى هو الذي خلقه وهـو الـذي يهديـه، وهـو الـذي يطعمـه ويسقيه، وهو الذي إذا مرض يشفيه، وهو الذي يميته ثم يحييه، وهو الذي يطمع أن يغفر له خطيئته يوم الدين.. إن هذا العبد المخلـص لله هـو الـذي وصفه الله جلّ جلاله في محكم كتابه بصاحب القلب السليم فقال عنـه فـي مقام المدح والثناء: (**وإن من شيعته لإبراهيم * إذ جاء ربّـه بقلـب سـليم**) (الصّافات: ٨٣ ـ ٨٤).

وفي بعض الأخبار سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: (**إلاّ من أتى الله بقلب سليم**) فقال: (السليم الذي يلقى ربّـه، وليس فيه أحـد سواه، وقال: وكلّ قلب فيه شك أو شرك فهو ساقط، وإنما أرادوا الزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة)[1].

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٠، ٥٩.

وعبر هذه البيانات القرآنية وما تلاها من توضيحات من قبل أئمة الهدى عليهم السلام ندرك الدور الأساس للإيمان بالله تعالى في بناء الذات الإنسانية، وهو الدور الذي لا يمكن أن يستعاض عنه بأيّ شيء آخر، إذ إن الثمرة الكبرى للإيمان في حياة الإنسان في هذا العالم هي الطمأنينة واستقرار النفس، فالقلوب إنما تسكن وتطمئن بذكر الله، وهو الأمر الذي يعكس ما تنطوي عليه من إيمان بالله في داخلها، ولذا قال عزّ من قائل: **(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب)** (الرعد:٢٨).

وما دمنا تحدثنا عن الإيمان ضمن فاعليته ودوره القلبي والشعوري فحريّ بنا أن نستعرض الأفكار الغنية التي طرحها أئمة أهل البيت عليهم السلام فيما يرتبط بالمهمة الأساسية والخطيرة التي يمكن للقلب أن ينجزها في مجال التغيير النفسي سلباً أو إيجاباً، وهو ما سيكون موضوع حديثنا في النقطة التالية.

٢ ـ دور القلب في البناء النفسي للإنسان

تعرّفنا في النقطة المتقدمة على لمحات من موقع القلب السليم في تحصيل النجاة للإنسان في الآخرة والاطمئنان والثبات النفسي في الحياة الدنيا، ونظراً لهذا الموقع الذي يحتله القلب في صياغة النفسية الإنسانية فقد اهتم القرآن الكريم بالعمل على دعوة الإنسان لتطهير قلبه من كل أسس ومظاهر وتداعيات الأمراض النفسية من شرك وحسد وحقد وغيرها، ونفس هذه الدعوة استعادها الأئمة عليهم السلام في أحاديثهم ووصاياهم وتوجيهاتهم، ولم تكن هذه التوجيهات تنطلق كمجرد توجيهات وعظية

وأخلاقية، وإنما كانت تبتني على الإلمام الشامل والمستوعب للفاعلية التي يقوم بها صلاح وفساد القلب في صياغة الشخصية الإنسانية، فالقلب السليم يفتح المجال لبناء الشخصية السوية التي تطفح بكل معاني الخير والجمال والتسامي، بينما يغلق القلب الفاسد على صاحبه كل منافذ الخير والرحمة والتعالي.

ولمّا كان يهمنا كالعادة أن نبين تناسق منهج أئمة أهل البيت عليهم السلام في كل الأحوال مع المنهج القرآني في أسلمة الذات، فإننا سنقوم أولاً باستعراض الرؤية التي يتبناها القرآن الكريم في هذا الشأن ومن ثم نحاول التعرف على الآفاق الخصبة لفكر الأئمة عليهم السلام في هذا المجال نفسه.

وأول ما يمكن أن يستثيرنا في حديث القرآن عن القلب هو ذلك التصريح الذي يؤكد القرآن من خلاله على أن محل الإيمان والتسليم وكذا الكفر والشرك هو القلب، وفي هذا التصريح إشارة لطيفة ونكتة دقيقة تفصح عن أن العقل لا مجال له لأن يعتقد بسوى الله إلهاً وخالقاً، هذا إذا ما أراد أن يلتزم بمبادئه وقواعده، فالقول بإله سوى الله يوقع الإنسان في تناقض عقلي وإرباك فكري، ولأجل ذلك توعدّ الله عزّ وجلّ من يشرك به شيئاً ويدعو معه إلهاً آخر بأنه لا يفلح، وذلك لأن الاعتقاد بشريك آخر مع الله لا يمكن أن يستند إلى أي برهان ولا يمكن أن يتوفر علي أي مبرر منطقي، فقال عزّ شأنه في جليل خطابه: (ومن يدعُ مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربّه إنّه لا يفلح الكافرون) (المؤمنون: ١١٧).

فالعقل إذن لا يمكن أن يذعن بوجود إله وخالق سوى الله جلّ جلاله، وهو الأمر الذي نبّه عليه الذكر الحكيم حينما أفصح عن عدم تردد

الكافرين والمشركين أنفسهم في الاعتراف بالله رباً وخالقاً حينما يُسألون عمّن خلق السموات والأرض، فقال تعالى: **(ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخّر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون)** (العنكبوت: ٦١)، وقال عظم شأنه: **(ولئن سألتهم من نزّل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون)** (العنكبوت: ٦٣)، وقال سبحانه: **(ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون)** (لقمان: ٢٥).

ولكن حينما نأتي لنحلل انفعالات القلب وتقلباته نجد أنه قد يحاول التنكر للحقيقة التي يقرّ بها العقل ويذعن لها الفكر، وقد قيل إن القلب إنما سمي قلباً لتقلبه وعدم ثباته، وهذا التصادم بين العقل والقلب نجد إشارة لطيفة إليه في قوله تعالى: **(فلمّا جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين * وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين)** (النمل: ١٣ ـ ١٤) ؛ فهذا المقطع القرآني يتحدث بكل صراحة عن الفصام بين العقل والقلب الذي يمكن أن يتمثله ويعيشه بعض الناس في موقفهم من الحق والباطل فهم في الوقت الذي يذعنون للحق والحقيقة التي لا يملكون قدرة على التنكر لها على مستوى العقل والبرهان، فإنهم يغالطونها ويسعون للتغطية عليها وعدم الالتفات لها على مستوى المشاعر والأحاسيس والمواقف، وفي المقطع القرآني المذكور إشارة واضحة إلى أن الجحود بما رأوه من آيات الله وتنكرهم لها إنما كان بتأثير وإكراه عوامل نفسية وذاتية محضة تتجسد في ظلمهم واستعلائهم على الحق، مما يدلل

على أن لتقلبات القلب دورها الأساس في إبعاد الإنسان عن الالتزام بمقتضى الحق والحقيقة.

ويذكّرنا القرآن الكريم أيضاً في العديد من آياته بالمواقف التي يتبناها الناس في ظروف التأزم وحالات الشدة، مقارنة بالمواقف التي يركنون إليها في حالات الرخاء والسكينة، فالكثير من الناس تسمح لنفسها بأن تعيش حالات الشرك بالله والبعد عن ذكره وتناسيه في ظروف الرخاء والأمن، ولكن بمجرد أن تواجه هذا الإنسان نفسه احتمالات الخطر والأذى فإنه لا يتردد في الاستنجاد بخالقه واستذكاره، ولكنه لا يعدو أن يكون استنجاداً منفعياً، في الوقت الذي يكشف هذا الاستنجاد عن فطرة فطر عليها الإنسان وتتغلل في أعماق نفسه تدلّه على أن من يملك ضرّه ونفعه ليس سوى الله عزّ وجلّ، وهذا المعنى أعاد الذكر الحكيم تذكيرنا به من خلال أقواله التالية:

١ ـ (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلمّا نجّاهم إلى البر إذا هم يشركون) (العنكبوت: ٦٥).

٢ ـ (وإذا مسّكم الضرّ في البحر ضلّ من تدعون إلاّ إياه فلمّا نجّاكم إلى البرّ أعرضتم وكان الإنسان كفوراً) (الأسراء: ٦٧).

٣ ـ (قل من ينجيكم من ظلمات البرّ والبحر تدعونه تضرّعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين * قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون) (الأنعام: ٦٣ ـ ٦٤).

والحقيقة الأخرى التي يرشدنا إليها القرآن المجيد فيما يتعلق بالقلب الإنساني هي ضرورة استعانة الإنسان بالله عزّ وجلّ في اصلاح قلبه وتثبيته على الإيمان، فمبدأ صلاح النفس الإنسانية صلاح القلب، والقلوب

بيد الله تعالى يقلبها كيف يشـــاء، فـلا منـاص مـن رجـوع الإنسـان إليـه والتجائه به في كل أموره، ومن هنا يدفع القرآن الكريم المؤمنـين لدعـاء الله تعالى بتثبيت قلوبهم على الحق والهدى فيقول: (**ربنا لا تزغ قلوبنا بعـد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهّاب**) (آل عمران: ٨).

وفي الوقت الذي يكشف القرآن الكريم عن أن هداية القلب وصلاحه إنما تكون بالإيمان بالله فحسب فيقول: (**ومن يؤمن بالله يهدِ قلبــه**) (التغـابن: ١١)، فإنه يكشف لنا من جهة أخرى أن ضيق الصدر وفسـاد القلـب هـو نتيجة حتمية للضلال والبعد عن الله تعالى فيقول: (**فمن يرد الله أن يهديـه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنّما يصّعـد في السـماء كذلـك يجعـل الله الرجـس علـى الذيـن لا يؤمنـون**) (الأنعام:١٢٥).

وبعد إيضاح هذه الحقائق القرآنية حول دور القلـب ومهمتـه في هدايـة وإضلال الإنسان بحسب استجابته أو رفضه للتفاعل مـع عوامـل الهـدى والخير والصلاح، فلنحاول الآن القاء بعض الضوء على الأفكار التي ألقاها أئمة الهدى عليهم السلام فيما يرتبط بحقائق القلـب الإنسـاني، وتأثيراتـه على صياغة الذات الإنسانية.

وأول تلك الحقائق التي بيّنها الأئمة عليهم السلام عن القلب هـي نفـس تلك الحقيقة القرآنية المتقدمة التي عنيت ببيان موضع القلب في التنازع بـين الخير والشر أو الحق والباطل، فعن الإمام جعفر بن محمد الصـادق عليـه السلام: (ما من قلب إلاّ وله أذنان على إحداهما ملك مرشد، وعلى الأخرى شيطان مفتِّن، هذا يأمره وهذا يزجره: الشيطان يـأمره بالمعـاصي والملـك

يزجره عنها وهو قول الله عزّ وجلّ: «عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد» [1].

وفي حديث آخر عنه عليه السلام أيضاً قال: (إن للقلب أذنين: روح الإيمان يسارُّه بالخير، والشيطان يسارُّه بالشر، فأيهما ظهر على صاحبه غلبه)[2].

وتحدّث أمير المؤمنين عليه السلام ببيان مفصل عن القلب معتبراً إياه أعجب ما خلقه الله تعالى في الإنسان فقال: (لقد عُلِّق بنياط هذا الإنسان بضعة هي أعجب ما فيه: وذلك القلب. وذلك أن له موادّ من الحكمة وأضداداً من خلافها ؛ فإن سنح له الرجاء أذلّه الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن ملكه اليأس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتدّ به الغيظ، وإن أسعده الرضى نسي التحفظ، وإن غاله الخوف شغله الحذر، وإن اتسع له الأمر استلبته العزّة، وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع، وإن عضّته الفاقة شغله البلاء، وإن جهده الجوع قعد به الضعف، وإن أفرط به الشبع كظتّه البِطنة. فكل تقصير به مضرّ، وكل إفراط له مفسد)[3].

والمقطع الأخير من كلمة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هذه يضع يدنا على القاعدة الكلية التي ينبغي مراعاتها من أجل التحكم في القلب وضبط أحواله، فالتقصير عن اعطاء القلب حقوقه ومتطلباته يضرّ به ويعيقه عن

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٣٣ ـ ٣٤، ح ١.

(٢) نفس المصدر، ص ٥٣، ح ١٧.

(٣) المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، قصار الحكم، ١٠٨، ص ١١٠.

القيام بدوره في دفع الإنسان للعمل الصالح، كما أن إسلاس العنان له واطلاق الحدود أمامه يفسده ويمنع صاحبه من الاستفادة منه، وهذا المعنى هو الذي يدفع أمير المؤمنين عليه السلام لأن يحدد ضوابط التعامل السليم مع أحوال القلب وتقلباته من أجل أن يبقى متزناً في مختلف الأحوال والظروف، فها هو يوصي قائلاً: (إن للقلوب شهوة وإقبالاً وإدباراً فأتوها من قبل شهوتها وإقبالها، فإن القلب إذا أُكره عمي) [١]، ويقول عليه السلام: (إن القلوب تملّ كما تملّ الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة)[٢].

وفي هذا السياق نفسه يقع قول الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام، إذ يقول: (إذا نشطت القلوب فأودعوها وإذا نفرت فودّعوها)[٣].

وربما يشاهد الإنسان المؤمن ويستشعر تحولات قلبه وتنقلاته ويتمنى أن يبقى هذا القلب ذاكراً الله عزّ وجلّ منقطعاً إليه، ولكنه يرى أن هناك من الشواغل والصوارف ما يصرفه عن استدامة هذه الحال، فيعود منشغلاً بالدنيا ومشاغلها، وحينئذ ربّما يخشى الإنسان المؤمن على نفسه من النفاق وعدم الصدق والإخلاص لربّه، ولكنها الحقيقة التي تنطوي عليها الطبيعة الإنسانية المنجذبة بإحدى شطريها إلى الدنيا، وبشطرها الآخر إلى الآخرة، وعلى الإنسان أن يجهد نفسه في إدامة مراقبة الخالق تعالى واستحضار ذكره، وهي النصيحة التي كان رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل البيت عليهم السلام يهدونها لأصحابهم حينما كانوا

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٦١.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر، ص ٦٠.

يشكون إليهم هذه الحالة، فقد روى العيّاشي في تفسيره عن أحد أصحاب الأئمة عليهم السلام أنه قال: (كنت عند أبي جعفر عليه السلام فدخل عليه حمران بن أعين فسأله عن أشياء فلمّا همّ حمران بالقيام قال لأبي جعفر عليه السلام: أخبرك ـ أطال الله بقاءك وامتعنا بك ـ أنّا نأتيك فما نخرج من عندك حتّى ترقّ قلوبنا وتسلوا أنفسنا عن الدنيا، وتهون علينا ما في أيدى الناس من هذه الأموال، ثم نخرج من عندك فإذا صرنا مع الناس والتجّار أحببنا الدنيا؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: إنما هي القلوب مرّة يصعب عليها الأمر ومرّة يسهل.

ثم قال أبو جعفر عليه السلام: أما أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله قالوا: يا رسول الله نخاف علينا النفاق، قال: فقال لهم: ولم تخافون ذلك؟ قالوا: إنّا إذا كنّا عندك فذكرتنا روعنا ووجلنا نسينا الدنيا وزهدنا فيها حتّى كأنّا نعاين الآخرة والجنة والنار ونحن عندك، فإذا خرجنا من عندك ودخلنا هذه البييوت وشممنا أولادنا ورأينا العيال والأهل والمال، يكاد أن نحوّل عن الحال التي كنّا عليها عندك وحتّى كأنّا لم نكن على شيء، أفتخاف علينا أن يكون هذا النفاق؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: كلاّ هذا من خطوات الشيطان ليرغبنكم في الدنيا، والله لو أنكم تدومون على الحال التي تكونون عليها وأنتم عندي في الحال التي وصفتم أنفسكم بها لصافحتكم الملائكة ومشيتم على الماء، ولولا أنكم تذنبون فتستغفرون الله لخلق الله خلقاً لكي يذنبوا ثم يستغفروا فيغفر لهم، ان المؤمن مفتن تواب، أما تسمع لقوله: «ان الله يحب التوابين» وقال:

«استغفروا ربكم ثم توبوا إليه»[1].

وتحدّثت عدّة من روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام عن مخاطر الزيغ والضلال التي تترصد بقلب الإنسان مما ينبّه على ضرورة تحفّز الإنسان وشدّة مراقبته لخواطر القلب، فالقلب دائماً يتعرض لمحاولات استقطاب من قبل عوامل الخير والشر، وهذه العوامل تبدأ صغيرة ومخفية ولكنها سرعان ما تكبر وتظهر لتستولي على القلب كله وتطبعه بطابعها، فإن كانت استجابة القلب لعوامل الخير أشدّ وأقوى فإنه يكون قلباً خيراً فاضلاً، وإن كانت استجابته لعوامل الشرّ أشدّ وأقوى فإنه سينقلب إلى الشرّ والرذيلة ويبتعد عن الحق والفضيلة، وإذا استدام الإنسان على هذه الحال فإن قلبه يصير حينئذ قلباً منكوساً لا يفلح صاحبه أبداً، ولذا حذّر الله عزّ وجلّ المؤمنين بقوله: **(ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) (الحديد: ١٦)**.

وهذا ما رام الأئمة عليهم السلام تسليط الضوء عليه عبر أقوالهم التالية:

١ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: (ما من شيء أفسد للقلب من الخطيئة، إن القلب ليواقع الخطيئة فما تزال به حتّى تغلب عليه فيصير أسفله أعلاه وأعلاه أسفله) [2].

٢ ـ وعنه عليه السلام أيضاً: (ان الله إذا أراد بعبد خيراً نكت في قلبه نكتة بيضاء، وفتح مسامع قلبه، ووكل به ملكاً يسدّده، وإذا أراد بعبد سوءاً نكت

---

(١) تفسير العيّاشي، ج ١، ص ١٠٩.

(٢) بحار الأنوار: ج ٧٠، ص ٧٠، ح ٢٢.

في قلبه نكتة سوداء وشدّ عليه مسامع قلبه، ووكل به شيطاناً يضلّه، ثم تلا هذه الآية: «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام»)[1].

٣ ـ وعنه عليه السلام أيضاً: (إن القلب ليتجلجل [2] في الجوف يطلب الحق فإذا أصابه اطمأن وقرّ، ثم تلا أبو عبد الله عليه السلام هذه الآية: «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ـ إلى قوله ـ كأنما يصّعد في السماء»)[3].

وهذه الروايات الثلاث التي جاءت كلها عن صادق أهل البيت عليه السلام تعطينا صورة واضحة عن التفاعلات النفسية التي تتوارد على قلب الإنسان، وقد أفادت كل رواية مطلباً خاصاً.

فالرواية الأولى تعرضت للتأثير السلبي الذي تتركه المعصية على القلب الإنساني، وهي تفصح عن خطورة المعصية من خلال الإشارة إلى أن الاستمرار على المعصية يؤدّي بالقلب إلى أن يصير منكوساً فلا يعي معنى من معاني الحق، ولا يفقه مبدأ من مبادئ الخير والصلاح، وقد أشار العزيز جلّ جلاله في محكم كتابه الكريم إلى العاقبة السيئة التي يمكن للمعصية أن تمارسها في تحديد مصير الإنسان إذا ما أقام عليها واستدام فعلها، والتي تصل إلى حدّ التكذيب بآيات الله والكفر بها، فقال عزّ شأنه: (ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأ أن كذّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن) (الرّوم: ١٠).

---

(١) نفس المصدر، ص ٥٧، ح ٣٠.

(٢) أي يضطرب، والجلجلة هي الحركة مع الصوت.

(٣) أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٢١، ح ٥.

وأما الحديث الثاني فقد سلّط الضوء على دور الهداية الربانية في صلاح القلب، وأن تأثير الهداية الإلهية يبدأ شيئاً فشيئاً بحسب استعدادات الإنسان وقابلياته التي يبديها من خلال استجابته لأحكام الله وانصياعه لأوامره، وكلّما أبدى الإنسان انصياعاً مخلصاً وانقياداً تاماً لله عزّ وجلّ كلّما كان ذلك سبباً في إزدياد توفيقاته وقربه من الله تعالى، حتّى يصير في كلّ أموره وحركاته وسكناته مستجيباً لأمر الله مهتدياً بهديه، وهذا الأثر الإيجابي الذي تتركه استدامة الإنسان على الطاعة والتقرب إلى الله تعالى بأنواع القربات الواجبة والمندوبة على قلب الإنسان، بل على كلّ وجوده هو ما عنت الرواية التالية الإشارة إليه، ففي حديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله: ما تحبب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وإنّه ليتحبب إليّ بالنافلة حتّى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، إذا دعاني أجبته، وإذا سألني أعطيته، وما ترددت في شيء أنا فاعله كترددي في موت المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته) [1].

وفي مقام بيان الأثر المعاكس الذي تتركه استدامة المعصية في وجود الإنسان سلّطت الرواية أيضاً الضوء على أن تأثيرات المعصية تبدأ أيضاً صغيرة ومحدودة، ولكن كلّما أصرّ عليها الإنسان وعاود مزاولتها استحكمت في سلوكه وتجذّر أثرها في قلبه فلا يستطيع بعد ذلك منها فكاكاً ولا يجد منها خلاصاً، حتى يختم الله على قلبه وسمعه وبصره فيكون

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٢، ح ٢١.

الشيطان هو الذي يتولى شؤونه، فلا يصدر إلاّ عن أمره، ولا يستجيب إلاّ إلى حكمه، وقد أظهرت جملة من آيات الذكر الحكيم هذه الحقيقة التي تمّ التعبير عنها بالختم على القلب والفؤاد والسمع والبصر، وفي ذلك يقول تعالى: (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) (البقرة: ٦ ـ ٧)، وقال عزّ شأنه: (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) (الجاثية: ٢٣).

وأما الحديث الثالث المتقدم ذكره فقد عنى ببيان السعي الدؤوب والصراع المستمر الذي يعيش القلب في ظلّه إلى أن يعثر على الحق ويتعرف على الحقيقة فيستقرّ ويطمئن، وتحصيل الاستقرار النفسي والطمأنينة القلبية ليست حاصل شيء آخر سوى الإيمان بالله والتسليم إليه، والإيمان بالله وتسليم الأمر كلّه إليه هما حصيلة المجاهدة في سبيل الله والسعي لنيل مرضاته، وقد وعد الله تعالى من جاهد في طلب مرضاته بهدايته لسبيله فقال: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا..) (العنكبوت: ٦٩).

ونكتفي بهذا المقدار من الحديث في بيان دور القلب في صياغة الذات الإنسانية، وننتقل بالحديث إلى نقطة أخرى تحت عنوان:

٣ ـ معرفة النفس مبدأ التغيير النفسي

لا أتصور أن هناك مطلباً أكّد أئمة أهل البيت عليهم السلام على أهميته في مجال التغيير النفسي أهم وأعمق وأخطر من معرفة الإنسان لنفسه، فلقد اهتمت روايات الأئمة عليهم السلام بالمساوقة بين معرفة الإنسان

لنفسه ومعرفته لربه، واعتــبرت أن معرفــة النفــس هــي الطريــق الوحيـد لتهذيبها وإصلاحها، وأن من جهل نفسه فقد جهل كلّ شيء، ولكن قبل أن نحاول استعراض المضامين التي طرحها أئمة أهل البيت عليــهم الســلام في مروياتهم حول هذا الشأن فلنحــاول أن نتعـرف أولاً علـى رؤيـة القـرآن الكريم بهذا الخصوص، فدائماً وأبداً تبقى رؤية القرآن هي الأساس والمبدأ والمنطلق الذي ننطلق منه للتعرف على أيّة حقيقة دينية ودراستها.

وما يقدّمه القرآن الكريم من حقائق عن معرفة النفس لا يمكننا إلاّ أن نقول إنه يثير الحيرة والعجب، في الوقت الذي يفتح عقولنا وأفكارنا علـى تصـورات ومعاني ما كان بالإمكان للبشرية أن تدركها لولا هذا الكتاب العزيــز الـذي لم يفرّط بحق وحقيقة في شيء، كما قال عنه منزله: (مــا فرّطنـا في الكتـاب مـن شيء) (الأنعام: ٣٨)، (وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه) (الحجر: ٢١).

وعلى كل حال فأهم حقيقة يثيرها القرآن الحكيم بشأن النفس تتمثـل في تلك المساوقة التي لا يتردد في التذكير بها بين معرفة النفس ومعرفة خالقها وموجدها، فآيات الذكر الحكيم تصـرح بمـا لا يقبـل الشـك علـى ارتبـاط معرفة الإنسان بنفسه بمعرفته بخالقه، والعكس بالعكس بمعنى أن القرآن لا يتردد في الجهة المقابلة من الربط تمام الربـط بـين عـدم معرفـة النفـس وعدم معرفة الحق سبحانه وتعالى.

وأول تلك الآيات البينات التي تستحضر هذا المعنى هي تلك الآيات الـتي تتحدث عن بداية خلق الإنسان، فتقرن بين إشهاده سبحانه وتعالى النــاس على نفسه وأنه ربهم، وبين إشهادهم على أنفسهم، وفي ذلك يقول عزّ مــن قائل: (وإذ أخذ ربك من بني آدم مــن ظـهورهم ذريتــهم وأشــهدهم علــى

أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنّما أشرك أباؤنا من قبل وكنّا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) (الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٣).

والنكتة الرائعة التي يثيرها في الذهن هذا المقطع القرآني تتمثل في الإفصاح عن أن مهمة إشهاد الإنسان على خالقه وإقراره له بالربوبية والوحدانية اقترنت منذ اللحظة الأولى لخلق الإنسان بإشهاد الإنسان على نفسه وتعرّفه على وجوده وحضور ذاته عند ذاته، مما يعني أن وعي الإنسان بذاته وحضورها عنده لا يمكن أن ينفك عن ذكره الله واستحضاره لذاته المقدّسة، كما أن تغييبه لذات الله ونسيانه لخالقه وموجده يستلزم لا محالة نسيانه لذاته وغفلته عن نفسه، وهذا المعنى تكفلت عدّة من آيات الذكر الحكيم ببيانه، فقال تعالى: (فاذكروني أذكركم..) (البقرة: ١٥٢)، وقال سبحانه في شأن المنافقين: (نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون) (التوبة: ٦٧)، وقال عزّ وجلّ محذراً المؤمنين: (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون) (الحشر: ١٩).

ولقد استعادت مرويات أئمة أهل البيت عليهم السلام نفس هذا القرن الأكيد بين معرفة النفس ومعرفة الخالق، وهذه جملة من الأحاديث التي تحدّثت عن ذلك:

١ ـ روى العلاّمة المجلسي (قدس سره) في البحار عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (من عرف نفسه فقد عرف ربّه، ثم عليك من العلم بما لا يصحّ العمل إلاّ به، وهو الإخلاص) [1].

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٢، ح ٢٢.

٢ ـ وروى نفسه أيضاً عن علي عليه السلام أنه قال: (اطلبوا العلم ولو بالصين، وهو علم معرفة النفس، وفيه معرفة الربّ عزّ وجلّ)[١].

وهذا الحديث ـ كما هو واضح ـ يصرّح بأن معرفة النفس هي الطريق لمعرفة الرب عزّ وجلّ.

٣ ـ وروي أيضاً في آخر كتاب الذكر والدعاء من بحار الأنوار عن الصحيفة المنسوبة إلى نبي الله إدريس عليه السلام: (من عرف الخلق عرف الخالق، ومن عرف الرزق عرف الرازق، ومن عرف نفسه عرف ربه)[٢].

٤ ـ وروى أيضاً في كتاب الإيمان والكفر أثناء حديثه عن مراتب النفس حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله يكشف بكلّ جلاء ووضوح عن الرابطة الوثيقة التي تحكم العلاقة بين الذات الإنسانية والذات الإلهية على مستويات متعددة ومختلفة، فقال (قدس سره): (روي في بعض الأخبار أنّه دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله رجل اسمه مجاشع فقال: يا رسول الله كيف الطريق إلى معرفة الحق؟ فقال صلى الله عليه وآله: معرفة النفس، فقال: يا رسول الله كيف الطريق إلى موافقة الحق؟ قال: مخالفة النفس، فقال: يا رسول الله كيف الطريق إلى رضا الحق؟ قال: سخط النفس، فقال: يا رسول الله كيف الطريق إلى وصل الحق؟ قال: هجر النفس، فقال: يا رسول الله كيف الطريق إلى طاعة الحق؟ قال: عصيان النفس، فقال: يا رسول الله كيف الطريق إلى ذكر الحق؟ قال: نسيان النفس، فقال: يا رسول الله كيف الطريق إلى قرب الحق؟ قال: التباعد من

---

(١) نفس المصدر، ح ٢١.

(٢) بحار الأنوار، ج ٩٥، ص ٤٥٦.

النفس، فقال: يا رسول الله كيف الطريق إلى أنس الحق؟ قال: الوحشة من النفس، فقال: يا رسول الله كيف الطريق إلى ذلك؟ قال: الاستعانة بالحق على النفس) [1].

وما يلزم قوله هنا: ان المساوقة بين معرفة النفس ومعرفة الحقّ سبحانه وتعالى تستبطن رؤية عميقة أراد الإسلام منّا التوجه إليها والاعتناء بشأنها، فالنفس بالرغم من كونها أقرب الأشياء إلينا، بل هي عين ذواتنا وحقيقتها، وبالرغم من كونها حاضرة عندنا، إذ كلّ إنسان حاضرة نفسه عند نفسه، إلاّ أنه تبقى النفس رغم ذلك كله أشكل شيء وأخفى موجود على الإنسان، وهذا الأمر هو الذي دفع بعض من أراد تفسير وإيضاح حديث «من عرف نفسه فقد عرف ربّه» إلى القول أن الحديث يشير إلى امتناع معرفة النفس كما هي ممتنعة على الإنسان معرفة خالقه وربّه، ولعلّ هذا المعنى هو ما يناسب تذكير الله سبحانه وتعالى للإنسان بقصور علمه ونقص معرفته عن إدراك كنه وحقيقة الروح، وذلك في قوله تعالى: (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من **العلم إلا قليلاً**) (الإسراء: ٨٥).

ومهما يكن من أمر فإن الاهتمام الذي أبداه الأئمة عليهم السلام تبعاً للقرآن الحكيم بشأن النفس ومحاولة التعرف على حقيقتها كان يقوم على مبدإ أن مجاهدة النفس وإصلاحها من غير المكن أن ينجزهما الإنسان في ظلّ جهله بحقيقة نفسه، وعدم قدرته على التعرف على ما يصلحها مما يفسدها، ولعلّ هذه الرواية المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تسلط

---

(١) نفس المصدر، ج ٧٠، ص ٧٢، ح ٢٣.

لنا الضوء على أهمية معرفة خفايا النفس في إرشاد الإنسان إلى طريق إصلاح نفسه وتهذيبها، فقد روى بعض أصحاب الأئمة عليهم السلام قائلاً: (سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: إن رجلاً في بني إسرائيل عبد الله أربعين سنة، ثم قرّب قرباناً فلم يقبل منه، فقال لنفسه: ما أوتيت إلاّ منك، وما الذنب إلاّ لك، قال: فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: ذمك لنفسك أفضل من عبادتك أربعين سنة)[1].

إننا في هذه الرواية القصيرة نلتقي بتجربة إنسانية تعيش حالة الإخفاق والفشل نتيجة رغبتها في التقرب من الله ولكن من دون أن تستتم عوامل النجاح، وتحسب أن النجاح يرتبط بسبب واحد فقط وهو كثرة العمل، ولكن إخفاقها في التجربة والذي وعته من خلال عدم قبول الله تعالى للقربان الذي تقربت به إليه بعد أربعين عاماً من الاجتهاد والعبادة ينبهها على عنصر مهم كانت تفتقده في عملها ومحاولة تقربها إلى الله، وذلك العنصر هو الاعتراف بتقصير النفس والإقرار بخطئها والتوجّه إليها بالمحاسبة والمساءلة.

وهذه النقطة بالذات تفتح لنا الباب من أجل أن نلج في موضوع نقطتنا القادمة، وهو الحديث عن مجاهدة النفس، والذي لا يمكن أن يتأسس إلا على قاعدة المعرفة بالنفس ووعي حالاتها وأحوالها، وهو ما عنينا ببيان أهميته في هذه النقطة.

---

(١) بحار الأنوار، ج ١٤، ٥٠٠، ح ٢٣.

٤ ـ مجاهدة النفس سرّ فلاح الإنسان

بعد أن أدركنا الأهمية البالغة التي أولاها الإسلام ـ من خلال القرآن الكريم وأحاديث الأئمة الأطهار عليهم السلام ـ للتعرف على حقيقة النفس الإنسانية، يلزمنا أن ندرك أن هذه المعرفة بالنفس التي دعا الإسلام لتحصيلها، لم يكن الغرض منها مجرد المعرفة البحتة، وإنما العلم يطلب للعمل ـ كما يحلو لبعض الأحاديث أن تعبر ـ، ومن هنا فالمقصد الأساسي من محاولة التعرف على حقيقة النفس هو مجاهدتها وإصلاحها وهدايتها لطريق الخير والفلاح، ولذا رتّب الله تعالى الفلاح على تزكية النفس وتهذيبها، لا على مجرد معرفتها والإحاطة بكنهها، فقال: **(ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكّاها * وقد خاب من دسّاها)** (الشمس: ٧ ـ ١٠).

ولعلّ هذه الآيات البينات من سورة الشمس تختزل لنا كلّ كلام يمكن أن يقال حول سرّ سعادة النفس وسبب شقائها وتعاستها، فالآية الأولى من هذا المقطع القرآني تدلّنا على الأهمية الكبرى التي تحتلها النفس الإنسانية في المنظور الإلهي، فهي تقع في سياق القسم الإلهي بجملة من الآيات الوجودية العظمى التي تحفل بالدلالة على الخالق والهداية إليه، إذ يقول تعالى قبل أن يقسم بالنفس: **(والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلاّها * والليل إذا يغشاها * والسماء وما بناها * والأرض وما طحاها)** (الشمس: ١ ـ ٦)، إلى أن يقول: **(ونفس وما سواها)**.

وبعد هذا القسم الإلهي بالنفس يسترسل الباري سبحانه وتعالى في

الحديث عن النفس بشكل يفصح عن خصوصية تتوفر عليها، ولا تتوفر عليها أيّة واحدة من آياته الأخرى، مما يعني أن شأن هذه الآية الإلهية هو شأن خاص ومتميز، ولعلّ شأنها الخاص الدي يميزها عن بقية الآيات الإلهية هو ما ألهمها الخالق من معرفة بالخير والشر، وما أعطاها من قدرة على التمييز بينهما، وهو ما أفاده تعالى بقوله: (**فألهمها فجورها وتقواها**)؛ وقد روي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن المراد من إلهام النفس فجورها وتقواها هو أن الله بين لها ما تأتي وتترك [1]، وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام: (أي عرّفها وألهمها ثمّ خيّرها فاختارت)[2].

ثم بعد أن أفاد الباري عزّ اسمه هذا المعنى وأنّه قد عرّف النفس الإنسانية ما فيه صلاحها وما فيه هلاكها، نبّه على ما به تستحصل النفس صلاحها وفلاحها، وما به تستجلب هلاكها وشقاءها، فبتزكيتها ومراقبتها وتهذيبها تستحق الفلاح ونيل السعادة، وبدسّها وتغطية مشاعرها وأحاسيسها وتعطيل قدراتها وإمكانياتها الخيرة التي تنطوي عليها يكتب عليها صاحبها الشقاء والحرمان والتعاسة الأبدية، وهو المعنى المستفاد من قوله تعالى: (قد أفلح من زكّاها * وقد خاب من دسّاها).

وهذه الأهمية لمجاهدة النفس وتهذيبها التي اختزلتها هذه الآيات البينات من سورة الشمس، أفاضت مرويات وأحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام في بيانها وتشريح أبعادها بشكل استطاعت من خلاله أن تكوِّن صورة متكاملة ورؤية شاملة عن مشروع مجاهدة النفس وتهذيبها، وهذه الصورة وتلك الرؤية هي ما سنعني ببيانه وإيضاحه عبر استعراض المضامين

---

(١) انظر: بحار الأنوار، ج ٥، ص ١٩٦، ح ٣.

(٢) نفس المصدر، ج ٢٤، ص ٧٠ ـ ٧١، ح ٤.

الأخلاقية التي انطوت عليها كلماتهم وأحاديثهم عليهم السلام في هذا الشأن.

وأول ما نحاول القاء الضوء عليه من أحاديثهم عليهم السلام هو كلماتهم الداعية إلى تهذيب النفس وضرورة محاسبتها ومراقبتها، فقد روى الحرّ العاملي في «وسائل الشيعة» عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (إن أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه)(١).

وقال النبي صلى الله عليه وآله في وصية له لأبي ذرّ: (على العاقل أن يكون له له ساعات: ساعة يناجي فيها ربّه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيما صنع الله عزّ وجلّ إليه) (٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: (ألا فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا فإن في القيامة خمسين موقفاً كلّ موقف مقام ألف سنة، ثم تلا هذه الآية «في يوم كان مقداره ألف سنة») (٣).

وكان علي بن الحسين عليه السلام يقول: (ابن آدم لا تزال بخير ما كان لك واعظ من نفسك، وما كانت المحاسبة من همّك، وما كان الخوف لك شعاراً، والحزن لك دثاراً، ابن آدم إنّك ميّت ومبعوث، وموقوف بين يدي الله عزّ وجلّ، ومسؤول فأعدّ جواباً)(٤).

---

(١) محمد بن الحسن الحرّ العاملي: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج ١١، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، باب ١، ح ٩، دار احياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٦٤، ح ٢.

(٣) نفس المصدر، ح ٤.

(٤) نفس المصدر، ص ٦٤ ـ ٦٥، ح ٥.

ويطري الإمام الصادق عليه السلام على مجاهدة النفس مبيناً عاقبتها الحسنة بالقول: (طوبى لعبد جاهد لله نفسه وهواه، ومن هزم جند هواه ظفر برضا الله، ومن جاور عقله نفسه الأمارة بالسوء بالجهد والاستكانة والخضوع على بساط خدمة الله تعالى فقد فاز فوزاً عظيماً، ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الرب من النفس والهوى، وليس لقتلهما في قطعهما سلاح وآلة، مثل الافتقار إلى الله والخشوع والجوع، والظمأ بالنهار، والسهر بالليل، فإن مات صاحبه مات شهيداً، وإن عاش واستقام أدّاه عاقبته إلى الرضوان الأكبر، قال الله عزّ وجلّ: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين») [١].

ولمّا كانت مجاهدة النفس هي الطريق لنيل رضا الله تعالى والفوز بالجنة والرضوان في دار السلام، فقد رأى الإسلام أن ذكاء ونباهة ووعي الإنسان إنما تقاس بمدى اهتمامه بهذا الأمر ورعايته له، وعدم اهتمام الإنسان بمجاهدة نفسه وتزكيتها إنّما تكشف عن حماقته وغفلته، وهذا ما يفصح عنه رسول الله صلى الله عليه وآله حينما يقول: (ألا أنبئكم بأكيس الكيسين وأحمق الحمقى؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أكيس الكيسين من حاسب نفسه، وعمل لما بعد الموت، وأحمق الحمقى من اتبع نفسه هواه وتمنّى على الله الأماني) [٢].

وقد اعتبرت أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام الحياة كلها مجالاً لمجاهدة النفس وتزكيتها، فالإنسان لا يعيش في نظر الإسلام في هذه الحياة

---

(١) نفس المصدر، ص ٦٩، ح ١٥.

(٢) نفس المصدر، ص ٦٩ ـ ٧٠، ح ١٦.

الدنيا بلا غاية وهدف، بل هو يعيش ويحيى من أجل أن يتكامل ويتسامى، والحياة كلها إنما تمتلك قيمتها من كونها تجسد معنى الكدح الدؤوب والسعي الدائم إلى الله تعالى باعتباره الحقيقة الدائمة والخالدة والباقية بعد فناء الأشياء وزوالها، ولذا قال عزّ شأنه: **(يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه)** (الانشقاق: ٦).

وتأسيساً على ذلك فقد كانت مجاهدة النفس هي أكبر الجهاد وأعظمه في نظر الدين والإسلام، لأنها المهمة التي تتوافر على عوامل تحدٍّ واختبار لصدق وإرادة وإخلاص الإنسان بشكل لا تتوافر عليه أيّة مهمة أخرى، حتّى الحرب والجهاد بالسيف، ولأجل ذلك جاءت جملة من الأحاديث التي تعبر عن جهاد النفس بـ«الجهاد الأكبر»، فقد روى بعضهم: (أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله رأى بعض أصحابه منصرفاً من بعث كان بعثه، وقد انصرف بشعثه وغبار سفره، وسلاحه عليه، يريد منزله، فقال صلى الله عليه وآله: انصرفت من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، فقيل له: أو جهاد فوق جهاد السيف؟ قال: نعم، جهاد المرء نفسه)[1].

وبنفس هذا المعنى روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: (إن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث سريّة فلمّا رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر، قيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس، ثم قال صلى الله عليه وآله: أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه)[2].

---

(١) نفس المصدر، ص ٦٨، ح ١٣.

(٢) نفس المصدر، ص ٦٥، ح ٧.

ويكفينا هذا المقدار من الحديث عن دور مجاهدة النفس في تحصيل السعادة للإنسان، وننتقل بالبحث الآن إلى النقطة الأخيرة من هذا الفصل، وهي:

٥ ـ إصلاح النفس مبدأ كل صلاح

لم يكن الاهتمام الذي أولاه الإسلام والدين لإصلاح النفس وتهذيبها ينطلق من محاولة لتضخيم بعد حياتي من أبعاد الإنسان على حساب الأبعاد الأخرى، أو من محاولة لتوجيه اهتمام الإنسان بجانب من جوانب وجوده وشغله به من دون أن يستحق هذا الجانب كلّ هذا الاهتمام، بل استند اهتمام الدين وعناية الإسلام بالدعوة لإصلاح النفس والحث البالغ على تهذيبها وتزكيتها من إدراك عميق للدور الذي يمكن أن يحققه انجاز هذه المهمة في حياة ووجود الإنسان، سواء على المستوى الفردي الخاص أم على المستوى الاجتماعي العام.

وإذا ما أردنا أن نتعرف على الدور الكبير والخطير الذي يحتلّه إصلاح النفس وتهذيبها في حياة الإنسان من خلال ما طرحته النصوص الإسلامية في الكتاب والسنّة، فإننا سنلحظ اهتماماً غير عاديّ أبدته هذه النصوص بهذه المسئلة، مما يدلل على أن هناك رؤية خاصة للدين وللإسلام في هذه المسئلة.

وأول ما يواجهنا من حديث للإسلام يسعى لتسليط الضوء على الدور الذي يحتلّه إصلاح النفس وتغييرها في إصلاح وتغيير مجمل الوضع المحيط بالإنسان هو قوله تعالى: (إن الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم) (الرعد: ١١).

وهذه الآية الكريمة صريحة في الربط ما بين تغيير الإنسان لنفسه وتغيير الله عزّ وجلّ لواقعه، ونفس هذا الربط يستعيد القرآن المجيد التذكير

به في قوله تعالى: (ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم..) (الأنفال: ٥٣).

وفي واقع الأمر هنالك تداخل وثيق وربط محكم بين الإنسان وواقعه، فالإنسان هو الذي يختار ويصنع حياته في الحياة الدنيا، كما يختار ويصنع مستقبله في الحياة الآخرة، والتسليم بهذه الحقيقة يؤسس على مبدإ أن الإنسان كائن عاقل مختار، زوّده الله بكل إمكانيات التطور والتغيير نحو الأحسن والأفضل، ولم يجعله مجبوراً على طبيعة لا يستطيع مجاوزتها ومخالفتها كما جعل الحيوانات والبهائم كذلك، بل عرّفه طريق الحق وطريق الباطل بما أنعم عليه من عقل وفهم وإدراك، ومنحه القدرة على اختيار ما يشاء منهما بما أنعم عليه من نعمة الإرادة والاختيار، وإلى ذلك أشار تعالى حينما تحدّث عن الإنسان قائلاً: (وهديناه النجدين) (البلد: ١٠)، (إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً * إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً) (البلد: ٢ ـ ٣).

فالإنسان خُلِقَ إذن كائناً حراً ومسؤولاً وقادراً على الفعل والتغيير، ومادام قادراً على الفعل والتغيير فلا بد أن يتحمل مسؤوليته كاملة في هذا المجال، وليس هناك ذات هي أقرب من الإنسان وأولى بالإصلاح من ذاته ونفسه التي بين جنبيه، وإذا ما استطاع الإنسان أن ينتصر على نفسه ويصلحها فإن ذلك يجعل الأبواب أمامه مفتوحة لإصلاح وتغيير الآخرين، كما أنه إذا عجز عن تحقيق أيّ تطور وتغيير إلى الأفضل والأحسن ضمن مستواه الذاتي والشخصي فهو بالتأكيد لن يستطيع أن يحرز أيّ تغيير في ذوات وأنفس الآخرين، وهذا المعنى عبّر عنه أجمل تعبير الإمام علي بن أبي

طالب عليه السلام في قوله: (ميدانكم الأول أنفسكم فإن قدرتم عليها فأنتم على غيرها أقدر وإن عجزتم عنها فأنتم عن غيرها أعجز)[1].

ومما رواه الآمدي في «غرر الحكم ودرر الكلم» من كلماته القصار في هذا المعنى قوله عليه السلام:

١ ـ (أعجز النّاس من عجز عن إصلاح نفسه) [2].

٢ ـ (من لم ينتفع بنفسه لم ينتفع به النّاس) [3].

٣ ـ (من لم يصلح نفسه لم يصلح غيره) [4].

وإدراكاً لهذه العلاقة التي تربط بين تغيير الإنسان لنفسه وقدرته على تغيير الآخرين فإن أمير المؤمنين عليه السلام يوصي من تسمو همته لإصلاح الناس بالبدء بإصلاح نفسه من معايبها فيقول: (إن سمت همّتك لإصلاح الناس فابدأ بنفسك، فإن تعاطيك صلاح غيرك وأنت فاسد أكبر العيب)[5].

ولقد أسهبت روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام في بيان العلاقة بين تغيير الإنسان لنفسه وتغيير الله لما حوله، مؤكدة على أن المبدأ لتغيير ما بالإنسان هو تغيير نفسه، فقد روى علي عليه السلام عن رسول الله صلى

---

(١) يؤسفني أن أدوّن هذه الكلمة الرائعة للإمام علي عليه السلام من ذاكرتي، ولقد بحثت عنها في المصادر الروائية المتوفرة بين يديّ ولكنّي لم أعثر عليها.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: عبد الواحد الآمدي، ص ٢٣٦، مكتب الاعلام الإسلامي، إيران ـ قم، الطبعة الأولى، بلا تاريخ.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٣٧.

(٤) نفس المصدر.

(٥) نفس المصدر.

الله عليه وآله أنّه قال: (يا عليٌّ ما من عبد إلاّ وله جوّاني وبرّاني يعني سريرة وعلانية، فمن أصلح جوّانيه أصلح الله عزّ وجلّ برّانيه، ومن أفسد جوّانيه أفسد الله برّانيه، وما من أحد إلاّ له صيت في أهل السماء، وصيت في أهل الأرض، فإذا حسن صيته في أهل السماء وضع ذلك له في الأرض، فإذا ساء صيته في أهل السماء وضع ذلك له في الأرض)[1].

وروى في بحار الأنوار عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: (كانت الفقهاء والحكماء إذا كاتب بعضهم بعضاً كتبوا بثلاث ليس معهن رابعة: من كانت الآخرة همّه كفاه الله همّه من الدنيا، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن أصلح فيما بينه وبين الله عزّ وجلّ أصلح الله له فيما بينه وبين الناس)[2].

وقال الإمام الصادق عليه السلام في مصباح الشريعة: (فساد الظاهر من فساد الباطن، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن خاف الله في السرّ لم يهتك ستره في العلانية) [3].

إن هذه البيانات التي يطرحها الأئمة عليهم السلام تكشف لنا عن ارتباط عميق بين إصلاح الإنسان لوضعه الداخلي وبين اصلاح الله عزّ وجلّ لوضعه الخارجي، مما يستوجب من الإنسان أن يجعل همّه الأول والأخير هو إصلاح ذاته والنجاة بنفسه، وقد قال تعالى مخاطباً المؤمنين: **(يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم إلى الله**

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٣٦٥، ح ١١.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٦٤.

(٣) نفس المصدر، ج ٧٣، ص ٣٩٥، ح ١.

مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون) (المائدة: ١٠٥).

ولكن كل هذه البيانات الإسلامية والدينيـة الـتي دعـت الإنســان المسـلم لجعل همه الأول نفسه وإصلاح ذاته، لا تريد أن توجّه الإنسان لتربية ذاتيـة تبتعد به عن واقعه ومحيطه فالإنسان مهما يكـن مـن أمـر يبقـى اجتماعيـاً بطبعه وطبيعته، ومن غير الممكن أن يعيش منعزلاً ومقطوعاً عن مجتمعه، ثـم هو بعد ذلك مسؤول عن مجتمعه وعن إصلاحه، وتحمّل الإنسان لمسـؤولية ذاته ومهمة إصلاحها لا يعفيه عن تحمّـل مهمـة السـعي لإصـلاح المجتمـع وترشيد حركة الآخرين ممن يعيشون معه في مجتمع واحد ويتفاعل معـــهم، ولأجل ذلك لم يغفل القرآن الحكيم في الوقـت الـذي عـني بتوجيـه الإنســان للاهتمام بذاته وإصلاحها أولاً وقبل كل شيء، أن يحمّل الإنسان بحسب ما يمتلك من قدرات وإمكانيات وبحسب ما يحتل من موقع اجتماعي ممارســة دوره في الاهتمام بالآخرين والعناية بإرشـادهم وإصلاحـهم، وفي ظـلّ هـذا الفهم الإسلامي للعلاقة بين الفرد والمجتمع نشأ دينياً مبدأ الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكر، والذي اعتبره الله عزّ شأنه مهمة لا منـاص مـن تحقيقـها والقيام بها في حركة المجتمع الإسلامي.

ولأن بيان هذا الأمر خارج عن مورد بحثنـا في هـذا الفصـل فإننـا لـن نتعرض له، ونأمل أن نلقي بعض الضوء على هذه الفريضة الإلهية الكبرى في بعض مباحث الفصل القادم، والذي يفصح عن منهج أئمـة أهـل البيـت عليهم السلام في أسلمة الذات ضمن مسارها العملي والسلوكي، فلـنر مـا هي معالم ومشخصات منهجهم في هذا المجال؟

الفصل الثالث

منهج الأئمة في التغيير العملي

بوصولنا إلى هذا الفصل نكون قد وصلنا إلى المرحلة الأخيرة من مراحل أسلمة الذات في المنهج التغييري للأئمة عليهم السلام، وهي المرحلة التي تعنى ببناء الذات ضمن حركتها العملية وممارساتها السلوكية، والتي لا يمكن إلاّ أن تعتبر نتيجة منطقية وطبيعية لبناء الذات في مرحلتيها السابقتين، أعني مرحلة البناء والتغيير العقلي، ومرحلة البناء والتغيير النفسي ؛ فالسلوك والممارسة التي تحكي البعد العملي في وجود الإنسان ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالبعدين المتقدمين، بل هما في الحقيقة إبراز وإظهار لمكنونات الإنسان العقلية والنفسية، وبمقدار ما يتوفر الإنسان على مميزات في تأسيسه العقلي وخصائص في بنائه النفسي بمقدار ما تنعكس هذه المميزات وتلك الخصائص على ممارساته وتصرفاته العملية.

وهذا الترابط بين العقل والقلب والعمل، أو بتعبير آخر بين الفكر والشعور والممارسة يفصح عن كون الإنسان بالرغم من تعدد قواه الإنسانية وجهاته الوجودية وحدة واحدة لا يمكن الفصل في نهاية المطاف بين عقلها وقلبها وعملها؛ وهي الحقيقة التي اهتم الإسلام ـ بما هو دين إلهي يستهدف صياغة الذات الإنسانية ضمن مستوياتها المختلفة ـ بالتعامل وفق معطياتها في كل تعاليمه وتوجيهاته وأحكامه، فلقد نظر الإسلام إلى الإنسان بما هو موجود واحد لا يقبل التجزئة والتفكيك، وإن

كان ذلك لا ينفي قدرة الإنسان على استظهار غير ما يبطـــن، أو اســتبطان غير ما يظهر، إلا أن ذلك يبقى في نهاية الأمر يحكي عن تواصل بين داخـــل الإنسان وخارجه، أو بين جوّانية وبرّانيه بحسب تعبير الروايات المتقدمة.

وهذه المشاكلة بين الداخل والخارج التي لا بد أن تعيش في نطاقها الذات الإنسانية مهما أبدت من محاولة للتمرد عليها والخروج من نطاقــها أشــار إليها الله تعالى في قوله: (قل كــل يعمـل علـى شــاكلته..) (الإســراء: ٨٤)، وبقوله: (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربّه والذي خبث لا يخرج إلاّ نكداً) (الأعراف: ٥٨).

وهذه المشاكلة بين مفاهيم العقل ومشاعر القلــب وتصرفـات الجـوارح سلّط الذكر الحكيم الضوء عليها في العديد من آياته البينات، ونكتفي ها هنا بالإشارة إلى صورتين حكاهما القرآن الكريم في هــذا المجـال، الأولى منــهما تحكي عن هذه المشاكلة ضمن فعلها الإيجابي في الذات الإنسانية، والثانيــة تفصح عن هذه المشاكلة ولكن ضمـــن تأثيرهـا الســلبي في صياغـة الـذات الإنسانية.

فالصورة الأولى هي ما يحكيه الله تعالى عن صفة المؤمنـــين في تعاملــهم مع آيات الله سبحانه وتعالى، إذ يقول: (وقرآناً فرقناه لتقــرأه علــى النــاس على مكث ونزّلناه تنزيلاً * قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلـــم من قبله إذا يتلى عليهم يخرّون للأذقان سجداً * ويقولون سبحان ربّنا إن كان وعد ربّنا لمفعــولاً * ويخــرّون للأذقــان يبكــون ويزيدهــم خشــوعاً) (الإسراء: ١٠٦ ـ ١٠٩).

ففي هذه الصورة الحيّة التي ينقلها القرآن الكريم عن تفاعل المؤمنين مع

الآيات المنزلة من القرآن نجد التصريح بالحالة النفسية المتعالية التي يعيشها هؤلاء فيما يبدونه من تأثر بالقرآن، وهذه الحالة النفسية والتي تتمظهر في تصرفات عملية تتمثل في البكاء والخشوع والسجود تتأسس على أساس العقيدة المحكمة والإيمان الراسخ بالله تعالى، وهو المعنى الذي نبه عليه الذكر الحكيم حينما عبّر عن هؤلاء النفر بـ (الذين أوتوا العلم)، وهذه الصورة القرآنية الحيّة تكشف بما لا مزيد عليه عن التأثير المتبادل بين كل من العقل الذي يتجسد في المقطع القرآني في «العلم»، والقلب الذي يتجسد في «الخشوع»، والفعل الذي يتجسد في «السجود والبكاء».

وأما الصورة الثانية والتي تتخذ اتجاهاً معاكساً للصورة الأولى فيحكيها الله عزّ وجلّ عبر قوله: (ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوءى أن كذّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن) (الرّوم: ١٠).

ففي هذه الصورة نجد الذكر الحكيم يربط أيضاً بين العمل والعقل والقلب، فيفصح عن التأثيرات السلبية التي يتركها العمل السيّئ في عقل وقلب الإنسان مما ينتهي به في نهاية الأمر للتكذيب بآيات الله والاستهزاء بها.

ولقد انطلق أئمة أهل البيت عليهم السلام من نفس هذه القاعدة القرآنية التي تربط بين كل مناحي الوجود الإنساني، والتي تعتبر الذات الإنسانية وحدة واحدة، وان العمل ليس سوى ثمرة للاعتقادات والقيم التي ينطوي عليها كلّ من عقل وقلب الإنسان، ولأجل ذلك اهتموا أولاً كما اهتم القرآن الحكيم ببناء الذات الإنسانية وأسلمتها من خلال العقل والقلب، لأنهما أساس ومبدأ الفعل الإنساني.

وأما معالم منهج الأئمة عليهم السلام في أسلمة الذات ضمن مجالها العملي وبعدها السلوكي فهو ما تفصح عنه النقاط التالية:

١ ـ العمل ثمرة العلم ومقتضى الإيمان

العمل والفعل هما مظهر الشخصية الإنسانية، والمبرزان لما تنطوي عليه من أفكار وقيم، وقد خلق الله تعالى الإنسان كائناً حسياً يتعرف أول ما يتعرف على الأشياء من خلال حواسه ثم بعد أن يتطور ويكبر يبدأ بتعقل الموجودات والمفاهيم والتصورات، فنشأة الإنسان إذن تبدأ أول ما تبدأ نشأة حسّية، ثم تتطور وترتقي لتصير نشأة خيالية، ومن بعد ذلك تصير نشأة عقلية تتعالى على الحس ويدرك الإنسان من خلالها ما يعجز الحس والخيال عن إدراكهما واستيعابهما، وربّما لأجل ذلك أُخّر ذكر «الفؤاد» عن السمع والبصر في قوله تعالى: (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) (النحل: ٧٨).

فالحس إذن هو بعد من أبعاد الوجود الإنساني ومظهر من مظاهر هذا الوجود، والرسالات الإلهية التي جاءت لبناء وصياغة الذات الإنسانية لم يكن من الممكن أبداً أن تغفل أو تتغافل عن بناء الإنسان ضمن أحد أبعاده، فالعمل الذي يمثل الجانب الحسي في الإنسان هو بالتالي بعد من أبعاد شخصيته، وجانب من جوانب حقيقته الوجودية التي تختزل بتمامها في بعدي العلم والعمل، فحقيقة كلّ إنسان هما علمه وعمله، ولأجل ذلك يتحدث القرآن المجيد دائماً عن هذين البعدين بما هما بعدان مقترنان لا يمكن التفكيك بينهما لا في الطبيعة ولا في الوجود، فطبيعة العمل متوافقة مع طبيعة العلم، كما أن وجود العلم يستدعي وجود العمل، ومن هنا جاء

الحديث القرآني عن الإيمان مقروناً غالباً بالحديث عن العمل الصالح باعتبار أنهما الجناحان اللذان يحلّق الإنسان المؤمن من خلالهما في أجواء التكامل الروحي والسمو المعنوي، فقال تعالى: (**وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار..**) (البقرة: ٢٥).

وقال عزّ شأنه: (**والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون**) (البقرة: ٨٢).

وقال جلّ جلاله: (**من عمل صالحاً من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيّبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**) (النحل: ٩٧).

والآيات القرآنية التي قرنت بين الإيمان الذي هو حصيلة العلم بالله تعالى وبين العمل الصالح أكثر من أن تحصى وتعدّ، وفي الآية المذكورة أخيراً إشارة لا تخفى على اعطاء القيمة للعمل الصالح حينما يقترن بالإيمان، وأما إذا ما تجرد العمل من الإيمان فإنه يفقد كلّ قيمة في منظور الدين والعقيدة، ومن هنا نرى أن الله عزّ وجلّ اعتبر أفضل الناس هو من قرن مع الإيمان بالله والدعوة إليه العمل الصالح، فقال سبحانه:(**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين**) (فصّلت: ٣٣).

ولأجل ذلك أيضاً نبّه عزّ شأنه على أن مقتضى رجاء الله والخشية منه هو تحصيل الإيمان به ونفي الشريك عنه مع قرن ذلك كله بالعمل الصالح، فقال: (**فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً**) (الكهف: ١١٠).

وهذه الرؤية التي طرحها القرآن الكريم في مجال الربط بين العلم

والعمل استعاد أئمة أهل البيت عليهم السلام التأكيد عليها وإبرازها في العديد من كلماتهم وأحاديثهم، فقد روى العلاّمة المجلسي (قدس سره) في البحار عن غوالي اللئالئ عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (إن العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلاّ ارتحل عنه) [1].

وقال الإمام علي عليه السلام: (العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل، والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلاّ ارتحل عنه) [2].

ولقد نظر أئمة أهل البيت عليهم السلام إلى العلم بما هو مقدمة للعمل، وأن الغاية التي ترجى من العلم والمعرفة إنما هي تحريك جوارح الإنسان نحو طاعة الله وامتثال أوامره من أجل أن يحقق معنى العبودية له سبحانه وتعالى في فعله كما يفترض أنه قد حققها قبل ذلك في عقله وقلبه عبر اعتقاده بالله وإيمانه به، ومن هنا لم يكن للعلم قيمة ذاتية في نظر الأئمة عليهم السلام حتّى يعمل به الإنسان، وهذا ما أفاده الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بقوله: (العلم الذي لا يعمل به كالكنز الذي لا ينفق منه، أتعب صاحبه نفسه في جمعه ولم يصل إلى نفعه) [3].

وقال الإمام علي عليه السلام: (تعلّموا ما شئتم أن تعلّموا فلن ينفعكم الله بالعلم حتّى تعملوا به، لأن العلماء همّتهم الرعاية، والسفهاء همّتهم الرواية) [4].

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٣، ح ٢٩.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٦، ح ٤٣.

(٣) نفس المصدر، ص ٣٧، ح ٥٥.

(٤) نفس المصدر، ص ٣٧، ح ٥٤.

وروى في البحار أنه (جاء رجل إلى علي بن الحسين عليهما السلام فسأله عن مسائل، ثم عاد ليسأل عن مثلها، فقال علي بن الحسين عليهما السلام: مكتوب في الإنجيل: لا تطلبوا علم ما لا تعلمون ولمّا عملتم بما علمتم، فإن العلم إذا لم يعمل به لم يزدد من الله إلاّ بعداً)[1].

إن هذا التأكيد من قبل أئمة أهل البيت عليهم السلام على لزوم العمل بالعلم جاء ليكشف عن المهمة الخطيرة التي يتحملها كل عالم تجاه ما يحمله من علم، وبحسب ما يتوفر عليه من علم ومعرفة، فدور العلم والمعرفة في حياة الإنسان ليس لغرض المباهاة والتعالي على الآخرين، بل الغرض الأول والدور الأساس للعلم في حياة الإنسان هو توجيه الإنسان وتسييره في طريق الالتزام بما عرفه وعلمه حقاً وحقيقة وإلاّ عاد علمه وبالاً عليه، ولأجل ذلك لا يتمنّع الذكر الحكيم من وصف من لا يتحمل مسؤولية علمه بأشنع الأوصاف وأقبحها فيقول عزّ شأنه: (**مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذّبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين**) (الجمعة: ٥).

ونفس هذه النفرة والاشمئزاز أبداهما الأئمة عليهم السلام في مواجهة من لا يلتزم بمقتضى علمه ولا يريد أن يتحمل مسؤولية العمل بما علم، وهو الأمر الذي شدد الأئمة عليهم السلام النكير عليه في العديد من أحاديثهم وكلماتهم، ففي الخبر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه حدّث عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: (العلماء رجلان: رجل عالم آخذ بعلمه فهذا ناج، ورجل تارك لعلمه فهذا هالك، وإن أهل النار ليتأذون

---

(١) نفس المصدر، ص ٢٨، ح ٦.

من ريح العالم التارك لعلمه، وإن أشدّ أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً إلى الله سبحانه فاستجاب له وقبل منه، فأطاع الله فأدخله الله الجنة، وأدخل الداعي النار بتركه علمه) [1].

ويشير الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في حديث له إشارة واضحة إلى أن أمانة العلم تتمثل في العمل به، فيقول: (العلم وديعة الله في أرضه، والعلماء أمناؤه عليه، فمن عمل بعلمه أدّى أمانته، ومن لم يعمل بعلمه كتب في ديوان الخائنين)[2].

وروى في بحار الأنوار عن أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له خطبه على المنبر أنّه قال: (أيها الناس إذا علمتم فاعملوا بما علمتم لعلّكم تهتدون، إن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق عن جهله، بل قد رأيت الحجة عليه أعظم والحسرة أدوم على هذا العالم المنسلخ عن علمه منها على هذا الجاهل المتحيّر في جهله وكلاهما حائر بائر..) [3].

وهذه الكلمة الأخيرة لأمير المؤمنين عليه السلام فيها مقارنة وقرن بين العالم الذي لا يعمل بعلمه، وبين الجاهل الحائر الذي لا يتأسس عمله على علم ومعرفة، وهما وإن كانا يختلفان ـ كما أشار الإمام عليه السلام إلى ذلك ـ من حيث إن الحجة ألزم على العالم لأنه ترك العمل عن علم ومعرفة بينما الجاهل ترك العمل عن جهل وعدم معرفة، إلاّ أن كليهما في النتيجة ـ كما قال عنهما عليه السلام ـ: (حائر بائر).

---

(١) نفس المصدر، ص ٣٤، ح ٣٠.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٦، ح ٤٠.

(٣) نفس المصدر، ص ٣٩، ح ٦٩.

وهذه المقارنة تفتح أعيننا على بعد آخر من أبعاد ثنائية «العلم والعمل»، وهذا البعد الذي أولاه الإسلام نفس الاهتمام الذي أولاه بعد العمل بالعلم هو بعد العمل بلا علم، وهو ما سيكون محور حديثنا في النقطة القادمة، وعنوانها:

٢ ـ لا عمل بلا علم

في الوقت الذي أكّد الإسلام على ضرورة أن يتحول علم الإنسان إلى عمل وممارسة كما تبيّن لنا ذلك في النقطة المتقدمة، فقد حثّ في المقابل على أن يتأسس عمل الإنسان على العلم والمعرفة، وإلاّ كان ما يفسده الإنسان أكثر مما يصلحه ؛ وفي واقع الأمر أن اهتمام الإسلام بأن يؤدّي الإنسان دائماً عمله على الوجه الأتمّ والأكمل هو ما استوجب أن يبرز الإسلام عنايته البالغة بضرورة تحصيل العلم والمعرفة بالعمل الذي يريد الإنسان القيام به قبل الشروع فيه، وهو الأمر الذي استدعى تفضيل العالم وتقديمه على الجاهل، فالعالم بما يتوفر عليه من علم يحرز شرطاً ضرورياً من شرائط صحة العمل وموفقيته وتأديته على وجهه المطلوب، بينما يفتقد الجاهل نتيجة جهله وعدم معرفته هذا الشرط فيقوى احتمال تورطه في الخطأ والاشتباه، ولذا كان مقتضى الإنصاف والعدل أن لا يساوى العالم بالجاهل، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله عزّ وجلّ: **(قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)** (الزمر: ٩).

وإذا كان العلم شرطاً ضرورياً لصحة العمل وسلامته فإن من الطبيعي حينئذ أن يعتني الدين بإبراز التمايز والمفارقة بين من يقيم عمله على بصيرة وهدى وعلم ومعرفة، وبين من يفتقد هذه السمات فيتخبط في الظلمات والشبهات، وهو المعنى الذي أفصح عنه الذكر الحكيم حينما قال:

(أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها..) (الأنعام: ١٢٢).

وبيّن الله تعالى قيمة العمل القائم على أساس البينة مقارناً بالعمل الذي يزيّنه الشيطان للإنسان فيفتقد كل هدى وبصيرة ونور فيقول: (أفمن كان على بينة من ربّه كمن زيّن له سوء عمله واتّبعوا أهواءهم) (محمد: ١٤).

ولمّا كانت قيمة العمل عند الله تعالى في كونه قائماً على هدى وبصيرة ووضوح في الوسائل والغايات، فقد اهتم القرآن الكريم كثيراً بإبراز قيام كل الدعوات والرسالات التي حملها الأنبياء والرسل عليهم السلام إلى أممهم وأقوامهم بلا استثناء على هذا الأساس، وهو ما كشفت عنه الآيات القرآنية التالية:

١ ـ ما حكاه القرآن المجيد من أمر لرسول الله صلى الله عليه وآله في بيان حقيقة دعوته: (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتّبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين) (يوسف: ١٠٨)، وقال: (قل إنّي على بينة من ربّي وكذبتم به..) (الأنعام: ٥٧).

٢ ـ ما حكاه الله عزّ وجلّ من قول نبي الله موسى عليه السلام لفرعون: (وقال موسى يا فرعون إنّي رسول من رب العالمين * حقيق على أن لا أقول على الله إلاّ الحق قد جئتكم ببينة من ربّكم فأرسل معي بني إسرائيل) (الأعراف: ١٠٤ ـ ١٠٥)

٣ ـ ما حكاه عزّ شأنه من قول نبيه نوح عليه السلام لقومه: (قال يا قومِ أرأيتم إن كنت على بينة من ربّي وآتاني رحمة من عنده فعمّيت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) (هود: ٢٨).

وهكذا تحدث القرآن الكريم عن بقية أنبياء الله ورسله عليهم السلام مؤكداً أنهم كانوا على بينة وهدى فيما جاءوا به من دعوات، وأنهم ما كانوا يعملون عملاً إلاّ عن علم ومعرفة، ونفس هذا المنهج القرآني الذي يعطي القيمة للعمل من خلال ما يتوفر عليه صاحبه من علم ومعرفة وبصيرة يستعيد التذكير بأهميته أئمة أهل البيت عليهم السلام في العديد من كلماتهم وأحاديثهم، والتي دللت كلها على أن المنهج الذي أراد الأئمة عليهم السلام ترسيخه وتثبيت جذوره في حركة وممارسة الإنسان المسلم لا بد وأن يتناسق مع منهجه في التأسيس العقيدي ومنهجه في البناء النفسي، فالعلمية والدقة والموضوعية هي سمات وخصائص أراد لها الأئمة عليهم السلام أن تتفاعل في كل أبعاد ومظاهر الذات المسلمة من أجل أن تتحقق مهمة الأسلمة في كل مستوياتها وبمختلف أبعادها، فالمسلم بالحقيقة هو من يسلم كل وجوده لله تعالى، فيأتي ربّه بعقل سليم، وقلب طاهر، وعمل صالح، إذ لا يقبل الله تعالى من الأعمال إلاّ صالحها كما قال عزّ شأنه: (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه..) (فاطر: ١٠).

وأما الاهتمام الذي أبداه أئمة أهل البيت عليهم السلام في مجال ضرورة تأسيس العمل على العلم فهو ما نتعرف عليه من خلال التأمل في مضامين كلماتهم التالية:

١ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر ممّا يصلح) [1].

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ١٥٢، ح ٨٧.

٢ ـ عن طلحة بن زيد قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: (العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق، ولا يزيده سرعة السير من الطريق إلاّ بعداً) [١].

٣ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (لا قول إلاّ بعمل، ولا قول وعمل إلاّ بنية، ولا قول وعمل ونيّة إلاّ بإصابة السنّة)[٢].

٤ ـ عن الحسن بن زياد الصيقل قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: (لا يقبل الله عزّ وجلّ عملاً إلاّ بمعرفة، ولا معرفة إلاّ بعمل، فمن عرف دلته المعرفة على العمل، ومن لم يعمل فلا معرفة له، إن الإيمان بعضه من بعض) [٣].

٥ ـ وتحدّث أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة عن أهمية العمل القائم على علم وبصيرة فقال: (فليصدق رائد أهله، وليحضر عقله، وليكن من أبناء الآخرة، فإنه منها قدم وإليها ينقلب، فالناظر بالقلب العامل بالبصر يكون مبتدأ عمله أن يعلم أعمله عليه أم له؟ فإن كان له مضى فيه، وان كان عليه وقف عنه، فإن العامل بغير علم كالسائر على غير الطريق، فلا يزيده بعده عن الطريق إلاّ بعداً من حاجته، والعامل بالعلم كالسائر على الطريق الواضح، فلينظر ناظر أسائر هو أم راجع) [٤].

---

(١) نفس المصدر، ج ١، ص ٢٠٦، ح ١.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٠٧، ح ٥.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧، ح ٢.

(٤) محمد دشتي وكاظم محمدي: المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، ص ٥٣، الخطبة ١٥٤، مؤسسة النشر الإسلامي، إيران ـ قم، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ.

هذه جملة يسيرة من أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام التي تحدّثت عن أهمية اقتران العمل بالعمل، فالعمل المؤسس على العلم والذي ينطلق فيه صاحبه من موقع البصيرة التامة بما يريد أن يفعل وتشخيص الغاية من فعله، هو العمل المنتج والمثمر، أما إذا افتقد العمل الوضوح في مبدئه الذي ينطلق منه، وغايته التي ينتهي إليها، وأسلوبه الذي ينتهجه، فإن مثل هذا العمل لا يمكن أن يعود بمردود على صاحبه، ولا يمكن أن يحقق الغرض المطلوب منه، لأنه بالأصل لم يكن له غرض محدد وغاية معينة، ولأجل ذلك يكون التخبط والارتباك والتقلب سمات لا تنفك عن مثل هذا العمل، وهي السمات التي نرى أن الله عزّ وجلّ يصف بها عمل الكافرين والمشركين الذين يفتقدون النور والبصيرة في كل ما يقفونه من مواقف أو يقومون به من أعمال، فيقول عنهم عزّ شأنه: (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلمّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صمّ بكم عمي فهم لا يرجعون * أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير) (البقرة: ١٧ ـ ٢٠).

وقال فيهم سبحانه أيضاً: (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتّى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب * أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم

يجعل الله له نوراً فما له من نور) (النور: ٣٩ ـ ٤٠).

وهذه التصويرات القرآنية البليغة توحي إلينا أن كل عمل لا يسير في الاتجاه الذي يرتضيه الباري سبحانه وتعالى لا بد أن يكون عملاً غير مبارك في الوقت الذي لا يمكن أن يتخذ مساراً غير مسار التعثر والاضطراب كما وصف الله تعالى من يأكل الربا بالقول: **(الذين يأكلون الرّبا لا يقومون إلاّ كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس)** (البقرة:٢٧٥).

وفي حقيقة الأمر إن هذه البيانات القرآنية وما سبقها من بيانات من قبل أئمة الهدى عليهم السلام تكشف لنا عن المعنى العميق الذي ينطوي عليه تأكيد النصوص الإسلامية بشكل عام على أهمية أن يؤسس الإنسان كل أعماله على العلم والوعي، فالإنسان خلق كموجود عاقل وواع، وما يقتضيه عقل الإنسان ووعيه هو أن لا يتحرك بلا هدف وغاية، وإلاّ تحول عمله وسعيه إلى ضرب من العبث واللهو، أضف إلى ذلك ـ وكما أشارت الروايتان الأولى والثانية ـ أن من يفتقد العلم والوضوح في رؤيته تجاه أيّ عمل يعمله قد يتعرض إلى خسارة أكبر من المنفعة التي يرجوها من العمل، فهو نتيجة جهله يفسد أكثر مما يصلح، ولأجل ذلك نهت روايات أهل البيت عليهم السلام عن مصاحبة الأحمق الذي لا يتفكر في عواقب الأعمال ولا يستحضر متطلبات نجاح العمل الذي يريد القيام به، فهو ربّما يريد أن ينفع صاحبه من خلال ما يقوم به من عمل، ولكن نتيجة جهله يعود العمل الذي يعمله عليه وعلى الآخرين بالخسارة والحسرة، وهذا المعنى اشارت إليه العديد من مروياتهم عليهم السلام، فقد قال علي لابنه الحسن (عليهما

السلام): (يا بني إياك ومصاحبة الأحمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرّك..)[1].

وفي الخبر عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام: (لا تقارن ولا تواخِ أربعة: الاحمق، والبخيل، والجبان، والكذاب، أما الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرّك...)[2].

وانطلاقاً من أهمية العلم في العمل فقد اعتبر الأئمة عليهم السلام أن مقياس العمل لا يتحدد بكثرته، وإنما بموافقته للعقل واستجابته للشرع، ولقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله (أثنى قوم بحضرته على رجل حتّى ذكروا جميع خصال الخير، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: كيف عقل الرجل؟ فقالوا: يارسول الله نخبرك عنه باجتهاده في العبادة وأصناف الخير تسألنا عن عقله؟ فقال عليه السلام: إن الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر، وإنما يرتفع العباد غداً في الدّرجات وينالون الزلفى من ربّهم على قدر عقولهم) [3].

وهناك حديث قدسي يرويه الإمام الباقر عليه السلام عن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، وفي هذا الحديث نتعرّف على الدور السلبي الذي يمكن أن ينعكس على عمل الإنسان حينما يفتقد البصيرة والوعي بمكامن الخطر في عمله، فجهل الإنسان يمكن أن يسيّر عمله مهما بدا صالحاً ومخلصاً في الاتجاه المعاكس لما يستهدف تحقيقه من ورائه، وهذا المعنى

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٩٨ ـ ١٩٩، ح ٣٥.

(٢) نفس المصدر، ص ١٩١ ـ ١٩٢، ح ٨.

(٣) نفس المصدر، ج ٧٧، ص ١٦٠، ح ١٤٤.

يشرحه هذا الحديث القدسي الذي يتكلم على لسان الله تعالى بالقول: (وإن من عبادي المؤمنين لمن يجتهد في عبادتي فيقوم من رقاده ولذيذ وساده فيتهجّد لي الليالي، فيتعب نفسه في عبادتي فأضربه بالنعاس الليلة والليلتين نظراً منّي له وإبقاء عليه، فينام حتّى يصبح فيقوم وهو ماقت لنفسه، زاري عليها، ولو أخلّي بينه وبين ما يريد من عبادتي لدخله العجب فيصيّره العجب إلى الفتنة بأعماله، فيأتيه من ذلك ما فيه هلاكه لعجبه بأعماله ورضاه عن نفسه، حتّى يظن أنه قد فاق العابدين، وجاز في عبادته حد التقصير، فيتباعد منّي عند ذلك، وهو يظن أنّه يتقرب إليّ) [١].

ونكتفي بهذا المقدار من الحديث عن أهمية ودور العلم والمعرفة في تخليص العمل من كل موانع الموفقية والنجاح والقبول عند الله سبحانه وتعالى، وننتقل بالبحث إلى نقطة أخرى من نقاط هذا الفصل وهي:

٣ ـ مقومات العمل الصالح

لم يخل حديثنا المتقدم عن بيان لبعض شرائط ومقومات العمل الناجح والموفق، أو بحسب التعبير القرآني «العمل الصالح» وكان أول تلك الشرائط وأهمها هو ابتناء العمل على العلم والمعرفة، وهو ما تعرضنا لبيانه بشكل مفصل في النقطة المتقدمة، وما نريد التعرض له في هذه النقطة من البحث هو بقية الشرائط والأركان والمقومات التي اعتبرها الإسلام ومنهج الأئمة عليهم السلام ضرورات لا يمكن التنازل عنها في تحقيق متطلبات العمل الناجح والموفق، فالعمل الإنساني هو ممارسة بشرية

---

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ٦٠ ـ ٦١، ح ٤.

تعكس شخصية الإنسان بما تنطوي عليه من مبادئ وقيم ومفاهيم، والعمل الإنساني هو بالتالي ـ وكما ينظر إليه الدين والإسلام ـ جزء لا يتجزء من وجود وكينونة الفرد، والإنسان محاسب ومسؤول عن عمله مهما كان صغيراً ومحدوداً، ومسؤولية الانسان تجاه عمله حقيقة يثبتها العقل والدين معاً، فمادام الانسان يمتلك العقل والقدرة والحرية والإرادة فهو مسؤول عن عمله ومحاسب عليه، ولا يمكنه أن يتحلل من مسؤولية عمله إلاّ حينما يفتقد العقل أو الإرادة أو القدرة أو الحرية.

وتحميل الإنسان مسؤولية عمله وسعيه أفصحت عنها العديد من آيات الذكر الحكيم، وهذه هي بعض الآيات التي تحدّثت عن هذا الأمر بكل صراحة:

١ ـ (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) (التوبة: ١٠٥).

٢ ـ (.. من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً) (النساء: ١٢٣ ـ ١٢٤).

٣ ـ (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور) (الملك: ٢).

ويبيّن القرآن الكريم أهمية العمل في تحديد مصير الإنسان من خلال تحميله مسؤولية عمله كما أشارت إليه الآيات المتقدمة، ومن خلال إيضاح أن طبيعة الجزاء الذي يلاقيه الإنسان في يوم القيامة تتناسب مع طبيعة العمل الذي يقوم به الإنسان في حياته الدنيا هذه، بل إن جزاء الإنسان هو

عين عمله، وهذا ما نستفيده من التعبير القرآني الذي يقول: (ووجـدوا مـا عملوا حاضراً) (الكهف: ٤٩).

فالإنسان يوم الحساب يجد عمله حاضراً أمامـه، إن خـيراً فخـير، وإن شراً فشر ؛ والانسان لا يأسف في يوم القيامة على أنه عمـل عمـلاً سـيئاً فحسب، بل هو يأسف حتّى على تلك الأوقات التي أضاعها في الحياة الدنيا ولم يستثمرها في العمل الصالح، ولأجل ذلك يدعو ربّه لأن يعيده إلى الحياة الدنيا كي يعمل صالحاً ويستدرك ما فاته، وهذا ما حكاه الله عزّ وجلّ مـن حال هؤلاء الناس بقوله: (ولو ترى إذ المجرمـون ناكسـوا رؤوسـهم عنـد ربّـهم ربّنـا أبصرنـا وسمعنـا فارجعنـا نعمـل صالحـاً إنّـا موقنـون) (السجدة:١٢).

ويستحضر الإنسان قيمة العمـل الصـالح أيضـاً حـين المـوت وتقطـع الأسباب كما أشار إلى ذلك تعالى بقوله: (حتّى إذا جاء أحدهـم المـوت قـال ربِ ارجعونِ * لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) (المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠).

وبعد أن اتضحت لنا قيمة العمل الصالح في حياة الانسـان وفي مصـيره الأخروي يكون من المشروع جداً أن نتسـاءل مـاهي المقومـات والأركـان اللازم توافرها في العمل من أجل أن يكون عملاً صالحاً؟

لن نجد إجابة على هذا السؤال أفضل من تلك الإجابة التي قدّمـها أهـل البيت عليهم السلام عن مقومات العمل الصالح التي لا يقوم عمل للإنسان إلاّ بها، فما هي يا ترى مقومات العمل الصالح؟

روى المجلسي (قدس سره) في بحار الأنوار عـن رسـول الله صلـى الله

عليه وآله أنّه أوصى علياً عليه السلام بالقول: (يا عليُّ ثـلاث مـن لم تكـن فيه لم يقم له عمل: ورع يحجزه عن معاصي الله عزّ وجلّ، وخلـق يـداري به الناس، وحلم يردُّ به جهل الجهال) [1].

إن كلمة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله هذه حددت وبشكل دقيــق مقومات وأركان العمل الصالح، فلنحاول أن نفصل ما أجملته هـذه الكلمـة والتي حددت أركان العمل التي لا يقوم عمل إلاّ بها في أمـور ثلاثـة: أولهـا الورع، وثانيها المداراة، وثالثها الحلم.

أولاً: الورع عن محارم الله: أما بالنسبة إلى هذه الخصلـــة وهـــي توفـر الانسان على ورع يحجزه عن معاصي الله، فهذه الخصلـة في واقـع الأمـر هي الأصل في كل عمل صالح يبتغي الإنسان التقرب به إلى خالقه، والله عزّ وجلّ لا يرضى من العمل إلاّ ما كان قائماً على الورع والتقوى، لأن ما عند الله تعالى لا يدرك إلا بالتقوى، وقـد قـال سـبحانه: **(إنمـا يتقبـل الله مـن المتقين)** (المائدة: ٢٧).

ومحاولة الربط بين العمل والورع، وإضفاء القيمة علـــى العمـل حينمـا يقترن بالورع، وسلب أيّة قيمة عنه حينمــا يتجـرد عـن الـورع والتقـوى، تتأسس في نظر الإسلام انطلاقاً من حقيقة أن العمل الذي يمكن أن يساهم في تحريك الانسان في طريق التكامل المعنوي والسـمو الأخلاقـي إنمـا هـو العمل الخالص لله سبحانه وتعالى، فالله جلّ جلاله أراد للانسان أن يســير في مسار العبودية الخالصة له من خلال ما شرعه مــن أحكـام وتكـاليف،

---

(١) بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٣٧٠ ـ ٣٧١، ح ١٣.

وهذه الأحكام والتكاليف لم يفرضها الله عزّ وجلّ على الإنسان من أجل أن يحمّله مالا طاقة له به، أو من أجـل أن يوقعـه في العسـر والحـرج، وإنمـا استهدف الله تعالى منها قبل كل شيء أن تكون عامل تطهير لقلب الانسان، ومحاولة لضبط سلوكه وتصرفاته ضمن المسارات التي تعود عليه وعلـى الآخرين بالنفع والصلاح، وهذا ما يفصح عنه تعالى حينما يقول: (**ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتمّ نعمته عليكـم لعلكـم تشكرون**) (المائدة: ٦).

وحتّى حينما يتحدث الباري سبحانه وتعالى عـن الحقـوق الماليـة الـتي تجب على الإنسان في أمواله فإنه يبين أن الغاية من تشـريعها هـو تطـهير قلب الإنسان من التعلق بأوساخ الدنيا فيقول مخاطباً نبيه الأكرم صلى الله عليه وآله: (**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**) (التوبة: ١٠٣).

وهكذا يتحدد لنا الورع كشرط أساسي من شرائط قبول العمـل، وهـذا ما أكدّت عليه مرويات وكلمات أئمة الهدى عليهم السلام، فعن عمـرو بـن سعيد بن هلال الثقفي عن أبي عبد الله عليه السلام (قال: قلت لـه: إنّـي لا ألقاك إلاّ في السنين، فأخبرني بشيء آخـذ بـه، فقـال: أوصيـك بتقـوى الله والورع والاجتهاد، واعلم أنه لا ينفع اجتهاد لا ورع فيه) [(١)].

وعن حديد بن حكيم قال: (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: اتقـوا الله وصونوا دينكم بالورع) [(٢)].

---

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ٧٦، ح ١.

(٢) نفس المصدر، ح ٢.

وعن يزيد بن خليفة قال: (وعظنا أبو عبد الله عليه السلام فأمر وزهّد، ثم قال: عليكم بالورع، فإنّه لا ينال ما عند الله إلاّ بالورع) [1].

ثانياً: مداراة الناس: هذا هو الركن الثاني والمقوّم الآخر من أركان ومقومات العمل الصالح الذي أشار إليه الحديث المتقدم عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ومداراة الناس صفة تستهدف ضبط حركة وممارسة الإنسان بعيداً عن أجواء النفاق والحيلة والخداع من جهة، وبعيداً عن أجواء التأزم والانفعال والمواجهة العنيفة مع الآخرين من جهة أخرى، وأهميتها في قيام العمل بها إنّما تنبع من وظيفتها هذه، فالانسان بحاجة إلى أن يداري الآخرين من خلال ما يبديه من قدرة على الابتعاد عن عوامل التأزم والإثارة في علاقاته معهم، فمن السهل أن يُستَجرّ الإنسان عادة إلى مواجهات ومواقف متشنجة في حياته اليومية، والعديد من هذه المواقف والمواجهات المتشنجة يمكن تلافيها والابتعاد عنها من خلال قليل من الصبر والحكمة يبديه الانسان في تعامله مع تلك المواقف والمواجهات، ويحفظ من خلال ما يبديه من صبر وحكمة شخصيته في الوقت الذي يبقي المجال مفتوحاً أمام الطرف الآخر من أجل أن يفكر في مراجعة وتصحيح مواقفه.

وخلق المداراة والتحمل ومعاشرة الآخرين بالتي هي أحسن هو الخلق الذي أمر القرآن الحكيم المؤمنين بالتخلق والاتصاف به، فقال: **(وقولوا للناس حسناً)** (البقرة: ٨٣)، وقال الله تعالى ناصحاً رسوله الكريم صلى الله عليه وآله: **(وإمّا تعرضنّ عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم**

---

(١) نفس المصدر، ح ٣.

قولاً ميسوراً) (الإسراء: ٢٨)، وقال عزّ شأنه: (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه ولي حميم * وما يلقّاها إلاّ الذين صبروا وما يلقّاها إلاّ ذو حظ عظيم) (فصّلت: ٣٤ ـ٣٥).

وتحدّث أئمة أهل البيت عليهم السلام عن المداراة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: (أعقل الناس أشدّهم مداراة للناس، وأذلّ الناس من أهان الناس) [1].

وعنه صلى الله عليه وآله أيضاً: (إنّا أمرنا معاشر الأنبياء بمداراة الناس كما أمرنا بأداء الفرائض) [2].

وقال صلى الله عليه وآله أيضاً: (مداراة الناس نصف الإيمان، والرفق بهم نصف العيش)[3].

وهذه المداراة التي يعتبرها رسول الله صلى الله عليه وآله نصف الإيمان جاء التأكيد عليها من قبله صلى الله عليه وآله منسجماً مع مهمته الإلهية التي كان يمارسها في وسط الناس، فهو الرسول المصلح الذي تحمّل أعباء الدعوة إلى الله تعالى من أجل اصلاح وبناء الانسان، وكان من اللازم أن يتوفر صلى الله عليه وآله على كلّ المؤهلات التي تمكّنه من تحقيق هذا الغرض وهذه الغاية، والمداراة وحسن الخلق والرفق بالناس كانت هي السمات الأساسية التي ساهم اتصاف الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٥٢، ح ٥.

(٢) نفس المصدر، ص ٥٣، ح ١٣.

(٣) نفس المصدر، ج ٧٧، ص ١٤٧، ح ٤٨.

بها في استقبال دعوته ونجاحها في تحقيق الأثر المرجوّ منها، وهذه المداراة لم تكن تعني شيئاً آخر سوى القدرة التي أبداها رسول الله صلى الله عليه وآله في التعامل مع الآخرين بحسب ما تقتضيه مستوياتهم وعقولهم، وهذا ما يبينه الحديث التالي عن أمير المؤمنين عليه السلام إذ يقول: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّا أمرنا معاشر الأنبياء أن نكلم الناس بقدر عقولهم)[1].

وهذه القدرة في المداراة وحسن الخلق التي تمثلها رسول الله صلى الله عليه وآله كانت هي السبب الأساس في التفاف الناس حوله واستمالة قلوبهم، وهو المعنى الذي يهدي إليه قوله تعالى في حقّ رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله: **(فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك..)** (آل عمران: ١٥٩).

ولم تكن هذه المداراة التي حثّ الإسلام على تحلّي الانسان بها تعني فيما تعنيه مظهراً من مظاهر النفاق والسكوت عن الحق كما قد يفهمها بعض الناس، ولأجل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس في غير ترك حق) [2].

ثالثاً: الحلم عن الجاهلين: هذه هي الخصلة الثالثة التي وردت في الحديث المتقدم لرسول الله صلى الله عليه وآله، وهي المقوّم والركن الثالث من مقومات وأركان العمل، والحلم صفة تعكس صفاء نفسياً يتوفر عليه من يتصف بها، وهي ضرورة من ضرورات العمل الانساني المثمر والموفق،

---

(١) نفس المصدر، ج ٢، ص ٦٩، ح ٢٣.

(٢) نفس المصدر، ج ٧٧، ص ١٤٧، ح ٤٩.

وهي تستجمع كل معاني الرفق والحكمة والتأنّي التي لا يتقوم أيّ عمل إلاّ بها [1]، فالممارسة العملية التي تستند إلى الحلم تحكي عن قدرة على التغلب على مصاعب الحياة والتعامل مع ظروفها الصعبة بتفكر وتعقل، ولا شك أن هذه الحالة تتيح أمام الفرد أن يستثمر الظروف المعاكسة دائماً لصالحه، ومن هنا قال أئمة أهل البيت عليهم السلام: (الرفق يمن والخرق شوم) [2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: (الرفق لم يوضع على شيء إلاّ زانه، ولا ينزع من شيء إلاّ شانه) [3].

وفي حقيقة الأمر إن اتصاف الإنسان بهذه الصفات إنما هو نتيجة أثر الإيمان بالله تعالى الذي يلقي بظلاله على قلب الإنسان فيرسخ معاني المحبة والرأفة والتسامح فيه، ونتيجة ذلك كله صيرورة الانسان فرداً فاعلاً في المجتمع من خلال أخلاقه الحسنة وخصاله الجميلة، ومثل هذا الفرد هو الذي يبشّره رسول الله صلى الله عليه وآله بالنجاة من العذاب حينما يقول كما روى عنه الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: (قال

---

(١) قال العلاّمة المجلسي (قدس سره) في بحار الأنوار ج ٢، ص ٤٥: (الحلم والرفق واللّين وان كانت متقاربة في المعنى لكن بينها فرق يسير، فالحلم هو ترك مكافاة من يسيء إليك والسكوت في مقابلة من يسفه عليك، ووزيره ومعينه: الرفق، أي اللطف والشفقة والإحسان إلى العباد، فإنّه يوجب أن لا يسفه عليك ولا يسيء إليك أكثر الناس، ووزيره ومعينه: لين الجانب وترك الخشونة والغلظة وإضرار الخلق).

(٢) نفس المصدر، ج ٧٥، ص ٥١، ح ٢.

(٣) نفس المصدر.

رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار غداً؟ قالوا: بلى يارسول الله، قال: الهيّن القريب اللّين السهل) [1].

ويبيّن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث آخر له العلاقة التي تربط بين كل من الإيمان والعلم والحلم فيقول: (نعم وزير الإيمان العلم، ونعم وزير العلم الحلم، ونعم وزير الحلم الرفق، ونعم وزير الرفق اللين)[2].

وامتدح القرآن الحكيم أيضاً الحلم والاعراض عن الجاهلين في جملة ما ذكره من صفات حسنة لمن أسماهم بـ «عباد الرحمن» فقال: (**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً * والذين يبيتون لربّهم سجّداً وقياماً * والذين يقولون ربنا اصرف عنّا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً * إنها ساءت مستقراً ومقاماً**...) (الفرقان: ٦٣ ـ ٦٦).

وبهذا نصل إلى نهاية الحديث في هذه النقطة من هذا الفصل، والتي تعرفنا من خلالها على مقومات العمل الصالح كما جاءت الإشارة إليها في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله، وإذا ما تمّ لنا ذلك فإنّه يلزمنا في المقابل أن نتعرف على منافيات العمل الصالح كما تمّ بيانها في تراث أئمة أهل البيت عليهم السلام، ذلك التراث الذي عني بمعالجة مشاكل وأزمات الذات الإنسانية ضمن أبعادها المختلفة، ومن خلال شرح مختلف الإرهاصات التي يمكن للذات أن تواجهها في مسارها الصعودي والتكاملي.

---

(١) نفس المصدر، ح ٤.

(٢) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٥، ح ١.

٤ ـ منافيات العمل الصالح

الإحاطة بعقد وتأزمات وخفايا النفس البشرية، والقدرة على معالجة أمراضها ومعرفة الطريق للتخلص منها، لم يكونا ولن يكونا في يوم من الأيام بالأمرين السهلين اللذينِ يمكن لكل الناس أن تحققهما بيسر وسهولة، بل الأمر على العكس من ذلك تماماً، فالنفس البشرية معرفتها تنطوي على صعوبة بالغة، والقدرة على التغلب على تأزماتها وعقدها ومشاكلها تنطوي على صعوبة أكبر وأبلغ.

وحينما نريد الحديث عن منافيات العمل الصالح نجد أن هذه الحقيقة تتجلّى لنا بكل وضوح، ففي هذا المجال نتعرف على مدى الصعوبات التي تواجه الانسان في طريق التكامل ومحاولة السعي للرقي الخلقي والمعنوي، فالعمل لا يمكن أن ينظر إليه بما هو مجرد ممارسة حركية يقوم بها الانسان كما يمكن أن يشابهه في القيام بها أي حيوان آخر ؛ إن القيمة التي ينطوي عليها العمل الانساني تتمثل في المعنى الذي يمكن أن يسبغه الانسان نفسه على عمله، وبتعبير آخر يمكننا القول إن العمل الانساني له صورة وروح، والمهم في عمل الانسان هو تلك الروح التي تدفع الانسان للقيام بالعمل، وهذه الروح هي التي أراد لنا الاسلام وأئمة أهل البيت عليهم السلام أن نستوعبها ونعيها في المجال العملي من وجودنا عبر مفهوم «النيّة».

وإذا ما أردنا أن نستعرض الأفكار التي أثارتها النصوص الإسلامية القرآنية والحديثية حول «النيّة»، فسنواجه غزارة في الطرح ومحاولة

للتوصل إلى أعماق الذات الإنسانية بالبحث والتحليل في مناشئ ومبادئ السلوك الإنساني، وهو أمر لا نعتقد أن هناك غير الاسلام من المبادئ والعقائد حاول تسليط الضوء عليه بهذا الشكل، والغور فيه بهذا العمق.

فالإسلام ركّز على «النيّة» أولاً وقبل كلّ شيء، معتبراً أن النية هي التي تحدد وجهة العمل، وهي التي تحدد في الوقت نفسه قيمته الأخلاقية والجزائية عند الله سبحانه وتعالى، ومن هنا حاول الإسلام في سعيه لبناء وتأسيس الجانب العملي عند الانسان أن يبدأ بتطهير نيته في كل عمل يقوم به من أي دافع آخر سوى نيل مرضاة الله تعالى والتقرب إليه، ولا شك أن الصعوبة التي يواجهها الإنسان في تطهير نيته هي أصعب بكثير من نفس العمل الذي يعزم على القيام به، وهذا ما كشف عنه الإمام أمير المؤمنين حينما قال: (تصفية العمل أشدّ من العمل، وتخليص النية من الفساد أشد على العاملين من طول الجهاد)[1].

ولو أردنا أن نستقصي منافيات العمل الصالح التي تهدم عمل الانسان وتبطله لوجدنا أنها متعددة، إلاّ أن معظمها يرجع في واقع الأمر إلى النية، فالنية الصالحة هي مبدأ وأساس العمل الصالح، كما أن النية الفاسدة هي أساس ومبدأ العمل الفاسد وإفساد العمل، إذ ليس هناك شيء أفسد للعمل من الرياء، كما أنّه ليس هناك شيء أصلح للعمل من الإخلاص، وكلا الأمرين ـ كما هو واضح ـ يرتبط بالنية، فالنية إذن هي مدار العمل، وهي

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ٢٩٠. وذكر الآمدي في «غرر الحكم» هذه الكلمة لأمير المؤمنين عليه السلام، غير أنّه أبدل (طول الجهاد) بـ (طول الاجتهاد). انظر المصدر المذكور، ص ٩٣.

التي تكشف عن حقيقة الانسان وباطنه، كما أنها هي التي عليها مدار قبول الأعمال ورفضها، ولقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً...) (هود: ٧)، أنّه قال: (ليس يعني أكثركم عملاً، ولكن أصوبكم عملاً، إنما الإصابة خشية الله والنيّة الصادقة) [١].

وانطلاقاً من ذلك فقد حصرت مرويات أئمة أهل البيت عليهم السلام العمل ضمن هذين الحدّين، حدّ الاخلاص، وهو مبدأ صلاح العمل واستقامته، وحدّ الرياء، وهو مبدأ فساد العمل وبطلانه، وتفصح عدّة من أحاديثهم عليهم السلام عن دور النية الصادقة في تصحيح عمل الانسان معتبرة إياها قوام الدين، وهي التي تدلّ على عقل الانسان، فيقول الصادق عليه السلام في حديث بليغ الدلالة: (إن ضوء الجسد في عينه، فإن كان البصر مضيئاً استضاء الجسد كلّه، وإن ضوء الرّوح العقل، فإذا كان العبد عاقلاً كان عالماً بربّه، وإذا كان عالماً بربّه أبصر دينه، وإن كان جاهلاً بربّه لم يقم له دين، وكما لا يقوم الجسد إلاّ بالنفس الحيّة فكذلك لا يقوم الدين إلاّ بالنية الصادقة، ولا تثبت النية الصادقة إلاّ بالعقل) [٢].

وهذا الحديث يفصح بشكل دقيق عن العلاقة التي تربط بين الدين والعقل من جهة، وبين النية وكليهما من جهة أخرى، فالنية الصادقة هي ما يتقوم بها الدين، لأن روح الدين إنما هي في الإخلاص لله سبحانه وتعالى،

---

(١) نفس المصدر، ج ٥٧، ص ١١.

(٢) نفس المصدر، ج ١، ص ١٥٣.

ولا سبيل للإخلاص إلاّ بالنية الصادقة، والنية الصادقة تتقوم بالعقل الذي يهدي الانسان إلى لزوم تخليص نيته وقصده من كل ما سوى الله عزّ وجلّ، لأن العقل يدرك بالدليل والبرهان أن من بيده الأمر كله ومن يملك جلب النفع للانسان ودفع الضرّ عنه ليس هو إلاّ الله تعالى، فهو الجدير إذن بالعبادة والاستسلام لإرادته.

وفي حديث آخر يختزل الإمام الصادق عليه السلام تمام مناط العبادة التي تقرب العبد إلى خالقه في حسن النية، فقد روى في الكافي عن أبي بصير أنّه قال: (سألت أبا عبد الله عليه السلام عن حدّ العبادة التي إذا فعلها فاعلها كان مؤدّياً؟ فقال: حسن النية بالطاعة) [١].

وتتحدّث بعض مرويات الأئمة عليهم السلام عن الأهمية التي تنطوي عليها النية الصادقة في تحديد مصير الانسان بالقول ـ كما عن أمير المؤمنين عليه السلام ـ: (المرض لا أجر فيه، ولكنّه لا يدع على العبد ذنباً إلاّ حطّه، وإنما الأجر في القول باللسان والعمل بالجوارح، وإن الله بكرمه وفضله يدخل العبد بصدق النيّة والسريرة الصالحة الجنة) [٢].

ولمّا كانت النية هي التي تكشف حقيقة عن باطن الانسان وسريرته فقد نظر إليها الأئمة عليهم السلام بما هي الأساس في كل عمل يقوم به الانسان، بل هي التي تحدد أصلاً قيمة العمل، ومن هنا اعتبر الأئمة عليهم السلام نية المؤمن أفضل من عمله لأن العمل يمكن أن يتطرق إليه الرياء لأنه أمر ظاهري لا يمكن للانسان إلاّ بصعوبة بالغة أن يتجرد من كل

---

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ٨٥، ح ٤.

(٢) بحار الأنوار، ج ٥، ص ٣١٧، ح ١٥.

التأثيرات غير السليمة التي يمكن أن تقترن به، ولكن النية التي ينطوي عليها قلب المؤمن لا يعلم بها إلاّ الله وهو، فهي حينما تترسخ في قلب الانسان المؤمن فإنما تحكي عن واقعية وصدق إيمانه بالله تعالى، ولأجل ذلك روى المجلسي (رحمه الله) (عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال له زيد الشّحام: إني سمعتك تقول: نيّة المؤمن خير من عمله، فكيف تكون النية خيراً من العمل؟ قال: لأن العمل إنّما كان رئاء المخلوقين، والنية خالصة لربّ العالمين، فيعطي عزّ وجلّ على النيّة ما لا يعطي على العمل، قال أبو عبد الله عليه السلام: إنّ العبد لينوي من نهاره أن يصلي بالليل، فتغلبه عينه فينام، فيثبت الله له صلاته ويكتب نفَسه تسبيحاً ويجعل نومه صدقة) [1].

وإذا كانت النية الصادقة هي قوام العمل الصالح، فإن أخطر ما يهدد العمل الصالح وينافيه هو الرياء، والذي يعني أن يقصد الإنسان بعمله غير الله تعالى، وكما حثّت مرويات الأئمة عليهم السلام على الإخلاص كشرط أولي وأساسي من شرائط العمل الصالح، فإنّها حذرت الانسان من أن يبتلى في أيّ عمل من أعماله مهما كان صغيراً وحقيراً بالرياء، إذ هو الشرك الأصغر الذي يتسلل إلى القلوب والنفوس من دون أن يشعر به الانسان فيبطل عمله ويذهب سعيه، ومن هنا حذّر الباري سبحانه وتعالى المؤمنين من الوقوع في شرك الرياء مما يستوجب بطلان أعمالهم وذهاب أجرهم فقال: **(يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر..)** (البقرة: ٢٦٤).

---

(١) نفس المصدر، ج ٧٠، ص ١٩٠.

وقال تعالى: (والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً) (النّساء: ٣٨).

وقال تعالى: (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدّون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط) (الأنفال: ٤٧).

إن هذه الآيات كلها تلقي لنا الضوء على دور الرياء في إبطال العمل واعتباره من أهم منافيات التقرب إلى الله، وهو ما استدعى أن تعتبره مرويات أئمة أهل البيت عليهم السلام «الشرك الأصغر»، ففي الحديث أن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: (إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قيل: وما الشرك الأصغر يارسول الله؟ قال: الرياء. قال: يقول الله عزّ وجلّ يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: إذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن في الدنيا، هل تجدون عندهم ثواب أعمالكم) [(١)].

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: (يسير الرياء شرك) [(٢)].

ويبيّن رسول الله صلى الله عليه وآله رفض الله تعالى لأيّ عمل يشرك فيه معه غيره فيقول: (يقول الله سبحانه: أنا خير شريك، من أشرك معي شريكاً في عمله فهو لشريكي دوني، لأنّي لا أقبل إلاّ ما أخلص لي) [(٣)].

وتكشف بعض رواياتهم عليهم السلام الصعوبة البالغة التي تعترض خلوص أيّ عمل من الرياء، مما يستدعي من الانسان مزيد تدقيق ومراقبة لنواياه، فالنفس يمكن أن تخدع صاحبها وتستغفله، وهذه الصعوبة التي

---

(١) نفس المصدر، ج ٧٢، ص ٢٦٦.

(٢) غرر الحكم، ص ٣١١، ح ٧١٩٥.

(٣) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٠٤، ح ٥١.

يواجهها العمل في خلوصه من الرياء تفصح عنها هذه الرواية التي يحـدّث بها معاذ بن جبل رجلاً سأله أن يروي له حديثـاً سمعـه مـن رسـول الله صلى الله عليه وآله، فقال الرجل: (قلت حدّثني بحديث سمعته من رسـول الله صلى الله عليه وآله حفظته وذكرته في كلّ يوم من دقّة مـا حدّثـك بـه، قال: نعم، وبكى معاذ، فقلت: اسكت، فسكت ثم نادى: بأبي وأمي حدّثـني وأنا رديفه قال: فبينا نسير إذ يرفع بصره إلى السماء فقال: الحمد لله الذي يقضي في خلقه ما أحب، قال: يا معـاذ، قلـت: لبيـك يـا رسـول الله ونـبيّ الرحمة، فقال: أحدّثك ما حدّث نـبي أمّتـه، إن حفظتـه نفعـك عيشـك، وإن سمعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله.

ثم قال: إن الله خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات، فجعـل في كـلّ سماء ملكاً قد جلّلها بعظمته، وجعل على كلّ باب منها ملكاً بوابـاً، فتكتـب الحفظة عمل العبد من حين يصبح إلى حين يمسي، ثم يرتفع الحفظة بعمله، له نور كنور الشمس، حتى إذا بلغ سماء الدنيا، فيزكّيه ويكثّره فيقول لـه: قف فاضرب بهذا العمل وجه صاحبه، أنا ملك الغيبـة فمـن اغتـاب لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري أمرني بذلك ربّي.

قال: ثم يجيء من الغد ومعه عمل صالح فيمرّ به ويزكّيه ويكثّره حتـى يبلغ السماء الثانية، فيقول الملك الذي في السماء الثانية: قف فاضرب بـهذا العمل وجه صاحبه، إنما أراد بهذا العمل عرض الدنيا، أنا صاحب الدنيـا لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري.

قال: ثم يصعد بعمل العبد مبتـهجاً بصدقـة وصـلاة فتعجـب الحفظـة ويجاوزه إلى السماء الثالثة فيقول الملك: قـف فـاضرب بـهذا العمـل وجـه صاحبه وظهره، أنا ملك صاحب الكبر، فيقول: إنّه عمل وتكبـّر فيـه علـى

الناس في مجالسهم، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري.

قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كالكوكب الدريّ في السماء له دويٌّ بالتسبيح والصوم والحج فيمرّ به إلى ملك السماء الرابعة فيقول له: قف فاضرب بهذا العمل وجه صاحبه وبطنه، أنا ملك العجب، فإنّه كان يعجب بنفسه وإنه عمل وأدخل نفسه العجب، أمرني ربي لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري وأضرب به وجه صاحبه.

قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد كالعروس المزفوفة إلى أهلها فيمرّ به إلى السماء الخامسة بالجهاد والصلاة بين الصلاتين، ولذلك رنين كرنين الإبل عليه ضوء كضوء الشمس، فيقول الملك: قف أنا ملك الحسد، فاضرب بهذاالعمل وجه صاحبه وتحمله على عاتقه، إنه كان يحسد من يتعلّم ويعمل لله بطاعته، فإذا رأى لأحد فضلاً في العمل والعبادة حسده ووقع فيه فيحمله على عاتقه ويلعنه عمله.

قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد أعمالاً بفقه واجتهاد وورع، له صوت كالرعد وضوء كضوء البرق، ومعه ثلاثة آلاف ملك فيمرّ بهم إلى ملك السماء السابعة فيقول الملك: قف واضرب بهذا العمل وجه صاحبه، أنا ملك الحجاب أحجب كلّ عمل ليس لله، إنّه أراد رفعة عند القوّاد، وذكراً في المجالس وصوتاً في المدائن، أمرني ربّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري ما لم يكن خالصاً.

قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد مبتهجاً به من خلق حسن، وصمت وذكر كثير، تشيّعه ملائكة السماوات السبعة بجماعتهم، فيطأون الحجب كلها حتّى يقوموا بين يديه فيشهدوا له بعمل صالح ودعاء، فيقول الله: أنتم

حفظة، عمل عبدي وأنا رقيب على ما نفسه عليه، لم يردني بهذا العمل، عليه لعنتي، فيقول الملائكة: عليه لعنتك ولعنتنا) [١].

ولا شك أن هذه الرواية في الوقت الذي تفيد أن الرياء يبطل العمل الصالح، فإنها تشير إلى مبطلات أخرى يمكن أن تطال عمل الانسان وتجعله هباء منثوراً كالغيبة، وحب الدنيا، والتكبر، والعجب... الخ، وهذا الأمر يكشف لنا عن مغزى التأكيد من قبل الأئمة عليهم السلام على تخليص النية من كل فساد حتى يخلص العمل تمام الإخلاص لله تعالى.

٥ ـ دور الشريعة في ضبط المسار العملي للانسان

في هذه النقطة من بحثنا والتي هي النقطة الأخيرة من هذا الفصل سيكون الحديث منصباً على الدور الذي أراد الاسلام أن يكون للشريعة في المجال العملي للانسان، فنحن نعلم ـ وكما تبيّن لنا مما سبق ـ أن الدين بما هو حقيقة إلهية يتوفر على مشروع تغييري شامل للانسان، والجانب أو البعد العملي هو جانب وجودي من جوانب وأبعاد الشخصية الانسانية، وقد اهتمت كل الأديان الإلهية بهذا الجانب ورعته وسعت لضبطه وتقويمه بكل السبل والوسائل، بل يمكننا القول إن الغاية النهائية للأديان والرسالات الإلهية في مشروعها لهداية وتربية النفس البشرية هي اعطاء الانسان القدرة على ضبط تصرفاته وسلوكياته من خلال ضوابط معينة وتعاليم محددة.

وتأسيساً على ذلك فقد حوت الأديان الإلهية تشريعات عملية تستهدف

---

(١) نفس المصدر، ج ٧٠، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨، ح ٢٠.

ضبط المسار العملي للانسان، في الوقت الذي حوت معارف عقلية تستهدف ضبط المسار العقلي والفكري للانسان، كما أنها حوت أيضاً تعاليم أخلاقية وروحية تستهدف ضبط المسار النفسي والروحي عند الانسان ؛ وإذا كانت «العقيدة» هي التي تكفلت بمهمة ضبط المسار العقلي والفكري للانسان، فإن «الأخلاق» هي التي تكفلت بمهمة ضبط المسار الروحي والنفسي للانسان، كما تكفلت «الشريعة» أو «الفقه» بضبط المسار العملي للانسان، وهكذا وكما لاحظ القارئ فقد تكلمنا عن المهمة الأولى التي تنجزها العقيدة في الفصل الأول من الكتاب، وتكلمنا عن المهمة الثانية التي تنجزها الأخلاق في الفصل الثاني من الكتاب، وقد عقدنا هذا الفصل الثالث والأخير للحديث عن المهمة الثالثة والأخيرة التي تنجزها الشريعة أو الأحكام الفقهية الشرعية، والتي تعني أساساً بتحديد التكاليف العملية للانسان المكلف.

ولا شك أن أيّ إنسان لديه أدنى إطلاع على الإسلام يدرك أن هناك جملة كثيرة من الأحكام والتكاليف الشرعية التي تدور بين الوجوب والحرمة والاستحباب والكراهة والإباحة ؛ وهذه الأحكام جاء قسم كبير منها في القرآن الكريم بشكل صريح وواضح ومحدد، كما أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار من أهل بيته عليهم السلام ساهموا في بيان وشرح وتفصيل قسم كبير أيضاً من هذه الأحكام الشرعية الفقهية.

وكما استطاع الإسلام أن يطرح منظومة عقائدية مستوعبة ووسيعة، وكما استطاع أن يطرح منظومة أخلاقية متعددة الجوانب والأبعاد، فقد استطاع أيضاً أن يبتكر منظومة تشريعية تطال باهتمامها كل تصرفات

وممارسات الانسان، والتي لا يمكن أن تخرج بأي حال من الأحـــوال عــن التعنون بعنوان معين من عناوين الحكم الشرعي الخمسة.

وبطبيعة الحال ليس بإمكاننا هاهنا أن نستعرض مفردات هذه المنظومة التشريعية لأن لذلك مجاله الخاص وهو «علم الفقه»، وإنمــا الــذي يعنينـا بيانه والحديث عنه في هذه النقطة هو محاولة الإفصاح عــن طبيعــة الـدور الذي أريد من الشريعة أن تحققه في الوجود الانساني ضمن المجال العملـي للبشر، باعتباره أحد المجالات التي أراد لها الإسلام والأئمة عليهم الســلام أن تخضع لمهمة الأسلمة من أجل أن تكتمل هذه المهمة ويكون الانسان كلّه لله الذي خلقه وهداه ورزقه.

وقد التقينا فيمـا سـبق ببعـض مرويـات الأئمـة عليـهم الســلام الـتي أفصحت عن الدور الذي يمكن أن يحققــه الالـتزام العملـي التـام بأحكـام الشريعة في وجود وشخصية الانسان، وهي المرويات التي كــانت تتحـدّث على لسان الله عزّ وجلّ بالقول: (ما تحبب إليّ عبدي بشــيء أحـب إليّ ممـا افترضته عليه، وإنّه ليتحبب إليّ بالنافلة حتّى أحبه فإذا أحببته كنت سمعــه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده الـتي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، إذا دعاني أجبته، وإذا ســألني أعطيتـه، وما ترددت في شيء أنا فاعله كترددي في مــوت المؤمــن يكـره المـوت وأنـا أكـــره مســاءته) [1].

وفي التزام الإنسان بأحكام الشريعة يتجلّى تحقيق معنى العبودية الـتي أرادها الله تعالى شأنه غاية لخلق وإيجاد الانسان على هــذه الأرض فقــال:

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٢، ح ٢١.

(وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون) (الذاريات: ٥٦)، وسئل الإمام الصادق عليه السلام عن هذه الآية فقال: (خلقهم ليأمرهم بالعبادة) [١]، وفي حديث آخر عنه عليه السلام أيضاً قال: (خلقهم للعبادة) [٢].

ولمّا كانت حقيقة العمل الصالح هي أن يصدر الإنسان في كل أعماله وأفعاله من موقع العبودية والطاعة لله تعالى، فقد ركّز الإسلام وأئمة أهل البيت عليهم السلام على هذا المفهوم باعتباره المفهوم الذي يستوعب كل الدلالات التي أراد الدين من الانسان أن يحققها في مساره العملي بل في كل مساره الوجودي، فتحقق الإنسان بمعنى العبودية يكشف عن إدراك من قبل الانسان نفسه عن حقيقته الوجودية ورغبة في الاعتراف بالحق والالتزام بمقتضى الحقيقة من دون أيّ سعي للتنكر لهذه الرابطة التي تربط الانسان بخالقه ومبدعه، ومن دون أيّة محاولة لتناسيها أو غض النظر عنها، وبهذا الاعتراف والإقرار يضع الانسان كل وجوده على المسار الصحيح والواقعي الذي أراده منه الله عزّ شأنه.

ومن هنا ندرك أن العبودية والتي لا تعني شيئاً سوى الالتزام الدقيق والصادق بأوامر الله ونواهيه هي قدر الانسان الذي لا يمكنه الفرار منه أو التنكر إليه، كما أنها في الوقت نفسه شرف الانسان الذي لا يمكنه أن ينال أيّ شرف أو كرامة من دون التزامه بمقتضاه، ولأجل ذلك شدد القرآن الكريم النكير على أولئك الذين يسعون للتنكر لحقيقتهم العبودية ويستكبرون عن عبادة خالقهم وولي نعمتهم ومن أفاض عليهم كل خير فقال: (.. إن الذين

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ١٣٢، ح ٥٩.

(٢) نفس المصدر، ح ٦١.

يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) (غافر: ٦٠)، وقال عزّ اسمه: (قل ما يعبأ بكم ربّي لولا دعاؤكم..) (الفرقان: ٧٧).

ويبيّن الله تعالى في مورد آخر جزاء من يستكبر عن عبادته في مقابل الجزاء الذي يناله عباده المؤمنون الطائعون فيقول: (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرّبون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً * فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأمّا الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً ولا نصيراً) (النّساء: ١٧٢ ـ ١٧٣).

وتأسيساً على ذلك فقد نظر الأئمة من أهل البيت عليهم السلام إلى العبادة بما هي المظهر الحقيقي لإخلاص الإيمان وصدق النية، كما أنها التجسيد الواقعي للمعرفة التي ينطوي عليها عقل وقلب الإنسان، ومعرفة الله جلّ جلاله هي مبدأ العبادة وأساسها الذي تقوم عليه، وهذا ما يشير إليه الإمام علي بن الحسين السّجاد (عليهما السلام) في قوله: (أيّها الناس ان الله عزّ وجلّ ذكره ما خلق العباد إلاّ ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه) [1].

وحدد الإمام الصادق عليه السلام الطريق لخروج الإنسان من الذلّ إلى العزّ، ومن الفقر إلى الغنى عبر التزامه بالعبودية لله، والتي تتمظهر في الالتزام بطاعته ورفض معصيته فقال: (من أراد عزاً بلا عشيرة، وغنى بلا مال، وهيبة بلا سلطان، فلينتقل من ذلّ معصية الله إلى عزّ طاعته) [2].

---

(١) نفس المصدر، ح ٥٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٧٨ ـ ١٧٩، ح ٢٦.

وروى نفسه عن آبائه عليهم السلام قال: (قال أمير المؤمنين عليه السلام من أراد عزّاً بلا عشيرة، وهيبة من غير سلطان، وغنى من غير مال، وطاعة من غير بذل، فليتحوّل من ذلّ معصية الله إلى عزّ طاعته، فإنّه يجد ذلك كلّه) [1].

وإذا ما تأملنا الأحكام التشريعية الفقهية التي جاءت بها الشريعة الاسلامية نجد أنها تمثل حدوداً لحركة الانسان، بمعنى أنها جاءت لضبط المسار العملي عند الانسان وتحديده بحدود العبودية، ومن هنا اعتبر التجاوز على هذه الحدود إعلاناً صريحاً من الانسان بالتمرد على إرادة الله، وتحدياً مكشوفاً لمقتضى العبودية التي لا يجيز العقل للانسان أن يخرج عنها في علاقته مع الله عزّ وجلّ في أيّ ظرف من الظروف ولأيّ سبب من الأسباب، ومن هنا توالت التحذيرات الإلهية التي تحذر وتنبّه الانسان على أهمية مراعاة حدود الله في كلّ شؤونه، فقال تعالى: (**تلك حدود الله فلا تقربوها**) (البقرة: ١٨٧)، وقال سبحانه: (**تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون**) (البقرة: ٢٢٩)، وقال عزّ شأنه: (**ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه**) (الطلاق: ١)، وقال جلّ جلاله: (**ومن يعص الله ورسوله ويتعدّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين**) (النّساء: ١٤).

وعبر التزام الانسان بحدود الله أو رفضه الالتزام بها يتشكل لنا مفهوما الطاعة والمعصية، وهما المفهومان اللذانِ يقيّمان كل أفعال الانسان في نظر الشريعة الإسلامية، فالطاعة تعني صدور الانسان في فعله موافقاً

---

(١) نفس المصدر، ص ١٧٩، ح ٢٩.

لأمر الله ونهيه، بينما تعني المعصية تمرّد الانسان على ربقة العبودية ومخالفة أفعاله لأوامر ونواهي الله عزّ وجلّ.

وهذان المفهومان ـ أعني الطاعة والمعصية ـ يفيض القرآن الحكيم في الحديث عنهما معتبراً إيّاهما الحدّين اللذينِ تتأرجح بينهما حركة الانسان ومساره العملي في هذه الحياة، وبمقدار ما يتمثل الانسان الطاعة والخضوع لله في أعماله وتصرفاته يستحق حسن المثوبة والجزاء من الله تعالى، وبمقدار ما يتمرد على أوامر ونواهي الله عزّ وجلّ ويستكبر عن طاعته وعبادته والخضوع لأمره بمقدار ما يكون له من سوء الجزاء والعاقبة.

والقرآن المجيد يتحدّث عن هذين المفهومين مبيناً الجزاء المترتب على كل واحد منهما، فيقول عن الطاعة وجزائها:

١ ـ (تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم) (النّساء: ١٣).

٢ ـ (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النّبيين والصّديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) (النّساء: ٦٩).

٣ ـ (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتّقه فأولئك هم الفائزون) (النّور: ٥٢).

٤ ـ (.. ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً) (الأحزاب: ٧١).

٥ ـ (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار) (الفتح: ١٧).

وأما عن المعصية وجزائها فقد تحدّث الذكر الحكيم قائلاً:

١ ـ (ومن يعص الله ورسوله ويتعدّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) (النّساء: ١٤).)

٢ ـ (ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً)(الأحزاب: ٣٦).

٣ ـ (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً) (الجن: ٢٣).

ومما ينبغي الاشارة إليه في هذا الشأن أن أحكام الشريعة في الوقت الذي أرادت من الانسان أن يكون مسؤولاً تجاه فعله ومحاسباً عليه، فإنها لم تغفل تحميل الانسان مهمة مراقبة أفعال الأفراد الآخرين ممن يعيشون معه في دائرة واحدة والسعي دائماً لإصلاح أيّ خلل يمكن أن يطرأ على تصرفاتهم وأساليبهم، وعبر هذا الأمر تأسس مفهوم «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» كمفهوم أصيل من مفاهيم الشريعة الاسلامية، وهو المفهوم الذي يتحمل الانسان من خلال ممارسته وتطبيقه مسؤوليته تجاه الآخرين من أفراد المجتمع ؛ ويمكننا أن نلاحظ بكل وضوح أن القرآن الحكيم يعني بتوجيه أوامره إلى المكلّفين وتحميلهم مسؤولية إصلاح ممارساتهم الخاصة والفردية بمستوى اهتمامه بتوجيه الأوامر إليهم في القيام بمهامهم تجاه إصلاح وتصحيح تصرفات وممارسات الآخرين، وهذا ما يمكننا أن نلحظه في الآيات القرآنية التالية:

١ ـ (يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا

حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبيّن الله لكـم آياتـه لعلّكـم تـهتدون * ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينـهون عـن المنكـر وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفـوا مـن بعـد مـا جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) (آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٥).

٢ ـ (يا أيّها الذين آمنوا كونوا قوّامـين بالقسـط شـهداء لله ولـو علـى أنفسكم أو الوالدين والأقربين..) (النّساء: ١٣٥).

٣ ـ (يا أيّها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطـوا واتّقـوا الله لعلّكـم تفلحون) (آل عمران: ٢٠٠).

وهذه الآيات غيض من فيض، وكلّها سعت لتوجيه أوامرها وتوجيهاتـها إلى المسلمين بما هم أمّة واحدة تتحمل جزاء سعيها وعملها، كما يتحمّل كل فرد جزاء سعيه وعمله، وهذه الأوامر والتوجيـهات الإلهيـة الـتي وجهـها الذكر المجيد إلى المؤمنين بما هم جماعة واحـدة هـي الـتي مـهّدت السـبيل لتشكيل مفهوم ومعنى «الأمة الواحدة»، وهي الأمة التي ربط الله عزّ وجـل وحدتها بتوحيده فقال: (إن هذه أمتكم أمة واحـدة وأنـا ربكـم فـاعبدون) (الأنبياء: ٩٢).

ومن الواضح هنا أن الأمة الاسلامية تتشكل وحدتها من خلال مهمتـها ومسؤليتها التاريخية والدينية التي تقوم بها، وهي المسؤولية الـتي يحمـلّ الله تعالى هذه الأمة مهمة القيام بها من خلال قوله: (وكذلك جعلنـاكم أمـة وسـطاً لتكونـوا شـهداء علـى النـاس ويكـون الرسـول عليكـم شـهيداً) (البقرة:١٤٣).

ومن خلال هذا المنهج القرآني نفسه مارس الأئمة عليهم السلام دورهم

في صياغة الجانب العملي عند الفرد المسلم والجماعة المسلمة، وانطلقت أحكامهم التشريعية المقتبسة من وحي النبوة وإرشادات الرسالة لتستوعب كل أوجه النشاط والعمل عند الانسان المسلم محاولةً صياغة وبناء كل تحركاته وممارساته عبر الالتزام بالحكم الشرعي، والذي أكّد أئمة أهل البيت عليهم السلام أنه يشمل كل ممارسات الانسان ويستوعب جميع تصرفاته، فالله عزّ وجلّ لم يترك فعلاً من الأفعال بلا حكم، ولا يمكن أن تخلو واقعة من الوقائع من حكم لله فيها، وفي هذا الشأن يتحدّث الإمام محمد الباقر عليه السلام مبيناً اشتمال الشريعة على كل الأحكام واستيعابها لكل القضايا التي يمكن أن تواجه الانسان في كل العصور والأزمنة فيقول: (**إن الله تبارك وتعالى لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة إلاّ أنزله في كتابه وبيّنه لرسوله صلى الله عليه وآله، وجعل لكلّ شيء حداً، وجعل عليه دليلاً يدلّ عليه، وجعل على من تعدّى الحدّ حدّاً**) [1].

وفي الوقت الذي يبيّن الإمام الباقر عليه السلام استيعاب الشريعة وشمولها لكل القضايا والوقائع، فإن ابنه الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يفصح في حديث آخر أن هذه الحدود والأحكام التي وضعها وقررها الله تعالى هي محدودة بحدود دقيقة ومضبوطة فيقول: (**ما خلق الله حلالاً ولا حراماً إلاّ وله حدود كحدود داري هذه، ما كان من الطريق فهو من الطريق، وما كان من الدّار فهو من الدّار، حتّى أرش الخدش فما**

---

(١) الكليني: الفروع من الكافي، ج ٧، ص ١٧٥ – ١٧٦، ح ٧، دار الكتب الإسلامية، إيران ـ طهران، الطبعة الثانية، ١٣٦٢ هجري شمسي.

سواه والجلدة ونصف الجلدة)[1].

وعبر العمل على تطبيق الشريعة والسعي لترسيخ أحكامها في ممارسات الفرد والأمة قام الأئمة عليهم السلام بتأدية البعد الأخير من أبعاد مسؤوليتهم ومهمتهم الانسانية والرسالية في أسلمة الذات، ومن خلال ذلك تمكنوا من طرح وتقديم منهج متكامل وشامل لهذا المشروع الخطير الذي أخذوا على عاتقهم مهمة انجازه وتحقيقه وفاء لعهدهم الذي عاهدوا الله عليه، وتحقيقاً لقول الله عزّ وجلّ فيهم: (وجعلناهم ائمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) (الأنبياء: ٧٣).

---

(١) نفس المصدر، ح ٩.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة في رحاب كلمات الوحي والإمامة نصل إلى خاتمة المطاف فيما رمنا بيانه وإيضاحه من منهج للتغيير وأسلمة الذات أخذ أئمة أهل البيت عليهم السلام على عاتقهم مهمة تحقيقه وانجازه في حياة البشر، ولقد كانت هذه هي مهمتهم الأصيلة التي تحمّلوا تأديتها بعد رحيل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله إلى ربّه، ومن خلال ما قاموا به من دور استطاعوا أن يبقوا الإسلام حياً في النفوس وفاعلاً في الواقع رغم كل محاولات التزييف والتحوير التي أريد لها أن تمسّ جوهر هذا الدين الإلهي وتحرفه عن مساره في هداية الانسان إلى ربّه والتزامه بمقتضى أمانته التي تعرّف عليها وتحمّل مسؤولية أدائها يوم أن تعرّف على هذا الدين وأكرمه الله ببعث خاتم النبيين صلى الله عليه وآله الذي كان رحمة للعالمين، وكان أن تحولت الأمة ببركة وفاعلية هذا الدين إلى خير أمة أخرجت للناس كما قال عنها تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله..) (آل عمران: ١١٠).

واليوم وبعد مرور أربعة عشر قرناً على مجيء الرسالة الخاتمة ودخول المسلمين مطالع القرن الخامس عشر الهجري لا يجد الانسان مناصاً من استرجاع كل معالم المسار الحياتي لتاريخ المسلمين خلال هذه

الفترة، وأهمية هذه المراجعة تنطلق من كونها محاولة لإعادة تركيب مفاصل الواقع الاسلامي المفككة والمختلة والمنخورة بطريقة جديدة وشكل صحيح عبر إعادة اكتشاف المضامين الحقيقية للرسالة من خلال محاولة تفهّم كلمات الثقلين اللذينِ خلفهما رسول الله صلى الله عليه وآله للبشرية: القرآن الكريم والعترة المطهرة.

ومحاولة استرجاع الماضي واستذكار حوادثه ومحنه لا تنطوي على محاولة للفرار من الواقع والتهرب من تحمل مسؤولية الحاضر، بقدر ما هي محاولة لالتماس النور والتعرف على الحقيقة التي تظافرت مساعي الحكّام وسكوت العلماء وخنوع الجهال على اخفائها وطمس معالمها، وهي محاولة لا كتشاف أمراض الحاضر من خلال إعادة فحص الماضي، وإذا كان واقعنا الإسلامي مازال يعيش منذ قرون متمادية في أجواء التفكك والتشرذم والانحطاط المتواصل، فهو يتقارب مع أجواء العذاب والضيق التي يعيشها أولئك الذين خاطبهم الجليل جلّ جلاله بالقول: (**قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً**) (الحديد: ١٣).

إن أهمية رجوعنا للماضي وللوراء تنبع من كونها محاولة لالتماس النور من ذلك الماضي، فماضي المسلمين في علاقتهم بالثقلين اللذينِ أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله المسلمين بالتمسك بهما والاعتناء بشأنهما قائلاً: (إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، ألا هذا عذب فرات فاشربوا، وهذا ملح أجاج فاجتنبوا).. هذه العلاقة لم تكن ـ مع الأسف ـ تتمثل الوعي

والاخلاص والمتابعة القائمة على الهدى والبصيرة، ولأجل ذلك عاش الوضع الاسلامي التدهور والتمزق والتطاحن لأنه لم يمتثل وصية رسول الله صلى الله عليه وآله في التمسك بهذين الثقلين.

وما حاولنا القيام به في هذا الكتيب كان محاولة للاستجابة لهذا التوجيه النبوي، فقد سعينا لاغتراف جرعات من ماء عذب فرات سائغ للشاربين، ولا تعدو هذه الجرعات أن تكون شيئاً مذكوراً في قبال ذلك التراث الضخم الذي خلّفة الأئمة عليهم السلام للأمة، والذي تقصر قدراتنا عن الإحاطة به وحصره فضلاً عن فهمه واستيعابه (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي ولو جئنا بمثله مدداً) (الكهف: ١٠٩)، (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم) (لقمان: ٢٧).

نعم.. تقصر قدراتنا عن الإحاطة بكلّ ما قدّمه الأئمة عليهم السلام للبشرية وتعجز عقولنا عن استيعاب وهضم كلّ معارفهم وعلومهم، ولكن لا نجد السبيل سالكاً إلى معرفة الله إلاّ بهم، إذ هم الأدلاّء على الله، والامناء على حلاله وحرامه، وهم الباب الذي فتحه الله لمعرفة دينه، وهذا القليل الذي استعرضناه في كتيبنا هذا من أحاديثهم ومعارفهم يؤكد هذه الحقيقة تمام التأكيد، ويدلّنا على أن المعارف التي بيّنها أئمة أهل البيت عليهم السلام لا تدع مجالاً للشك في إمامتهم، وأن مناط تقديمهم وتفضيلهم هو ما أنعم الله به عليهم من علم وفضل ودراية، ومن خلال ذلك تمكنوا من أن يكونوا هداة إلى الله وأدلاّء على طريقه، وهذا النزر اليسير من أحاديثهم وكلماتهم التي استعرضناها في هذا الكتيب، والتي توجهت كلها لبناء

الانسان وصياغة ذاته صياغة عقلية ونفسية وسلوكية تقوم أساساً على تحقيق معنى الإسلام ومضمون التسليم لله في كلّ أبعاده وجوانبه، تدلل على أنهم كانوا مؤهلين من قبل الله تعالى للقيام بهذا الدور وتأدية هذه الوظيفة.

إذ إن الإنسان هو الموجود الذي استهدفه الله عزّ وجلّ برسالاته وتعاليمه التي أنزلها على أنبيائه ورسله عليهم السلام، وليس ذلك إلاّ لأن الانسان موجود مكرّم من قبل الله تعالى، وهو ما نبّه عليه بقوله: (**ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيّبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً**) (الإسراء: ٧٠)، وهذا التكريم الإلهي للانسان يستدعي أن لا يترك الله عزّ شأنه مهمة العناية بالبشر وتزكيتهم وهدايتهم لأيّ أحد من الناس، بل هو يختار الصفوة من عباده المخلصين للقيام بهذا الدور، ومهمة هداية الناس إلى طريق الحق وتكميل نفوسهم وترقية استعداداتهم مهمة لا يمكن أن تنتفي ضرورتها وأهميتها في يوم من الأيام، وبناء على ذلك لابد أن يهيّئ الله سبحانه وتعالى الأسباب لاستمرار هذا الدور وعدم انقطاعه، وعبر هذه الفكرة يتأسس دور الإمامة الذي قام به أئمة أهل البيت عليهم السلام منذ اللحظة الأولى لارتحال رسول الله صلى الله عليه وآله عن هذه الحياة الدنيا.

وهكذا تولّى الإئمة عليهم السلام الواحد بعد الآخر القيام بهذه المهمة، وتركوا لنا خلال القرنين والنصف التي عاشوها بين الناس تراثاً ضخماً وغنياً من التوجيهات والتعاليم والمعارف التي تفرض على أيّ انسان عاقل احترامها وتقديرها، بل والإعجاب والانبهار بها، وهكذا فرض أئمة أهل

البيت عليهم السلام سلطتهم على العقول والقلوب بما توفّروا عليه من علم وحكمة ومنطق.

وفي هذا الكتيب تعرفّنا على بعض ملامح ومعالم منهجهم عليهم السلام في أسلمة الذات، والذي استوعب أبعاد الانسان الأساسية، أعني: العقل، والقلب، والسلوك، وكان منهجهم ـ كما اتضح ـ متساوقاً ومنسجماً مع منهج القرآن الحكيم، ولا عجب في ذلك فهما الثقلان اللذان أخبر عنهما رسول الله صلى الله عليه وآله أنهما لن يفترقا حتّى يردا عليه الحوض.

ولقد تأسّس منهجهم في أسلمة الذات ضمن مجالها العقلي على مبدإ تحكيم دور العقل في المعرفة وتفعيل مهمته في التعرف على الوحي واستفهامه، وكانت العقيدة عندهم تبتنى على العقل وتنسجم مع مقولاته ومبادئه، والأصل الأصيل في العقيدة هو التوحيد الذي اعتبره الأئمة عليهم السلام عمود الخيمة لكل المعارف الدينية الأخرى، ومن هنا شددوا على أهمية الإخلاص في التوحيد وتحكيم قواعده، وكان منهجهم في التعرف على الخالق سبحانه وتعالى منهجاً فريداً ومتميّزاً، فقد أكّدوا أن المعرفة الصحيحة لله عزّ وجلّ هي المعرفة القائمة على معرفة الله بذاته، فهو الظاهر بنفسه والمظهر لغيره، وهو أجلّ من أن يُعْرَف بغيره بل غيره يُعْرَف به، ومن خلال ذلك استطاع الأئمة عليهم السلام أن يطرحوا معرفة علمية خالصة تبتعد كلّ الابتعاد عن تأسيس العقيدة على أساس الظن والوهم واللايقين، أو على أساس التقليد والمتابعة العمياء.

وأما منهجهم في أسلمة الذات ضمن مجالها النفسي والقلبي فقد أقاموه على أساس التوجه أولاً إلى طبيعة الصراع الذي يحتدم في داخل النفس

الانسانية بين الشرك والإيمان، وعبر التوجه إلى خطــورة هــذا الصــراع لا مناص من العمل على تطهير القلب والنفس من اغراءات الشيطان، والطريق لتطهير القلب لا يتمّ إلاّ من خلال معرفة النفس والإحاطة بتقلباتها ومعرفة أحوالها، وعلى هذا الأساس مثّلت معرفة النفس في منهجهم عليهم الســـلام الطريق والسبيل لمعرفة الله سبحانه وتعالى، كما مثّل إصلاحــــها وتزكيتـــها السبيل الوحيد لسعادة الانسان وفوزه بالنجاة.

وأما منهجهم في أسلمة الذات ضمن مجالها العملي والسلوكي فقد كــان يقوم على اعتبار التواصل بين كل من العلم والإيمان والعمل، فالعمل ثمرة العلم النافع ومقتضى الإيمان الصادق، وانطلاقاً من ذلــك لم يعـطِ الأئمـة عليهم السلام أيّة قيمة للعمل الذي لا يقــوم علــى أســاس العلــم والمعرفـة والبصيرة، كما أنهم نظروا إلى الإخـــلاص في العمــل باعتبــاره أهــم شــرط لصلاح العمل، وفي المقابل اعتبروا الرياء الآفة العظمـــى الــتي تفســد عمــل الإنسان وتضيّع جهوده، وكان عملهم على تفعيــل دور الشــريعة في حيــاة الفرد والمجتمع عبر حثّهما على الالتزام بأحكام الشريعة هو المنطلق لضبط وصياغة السلوك العملي للانسان المسلم.

وعبر عنايتهم واهتمامهم عليهم السلام بهذه الأبعاد الثلاثة مــن وجــود وذات الانسان تكامل منهجهم التغيـــيري، واســتطاعوا أن يرسمــوا معــالم محددة وواضحة لرؤية تغييرية فاعلة تستوعب باهتمامها الانسان بما هــو موجود ينطوي على عقل يكوّن بعده العقلي، وطريــق إصـــلاح العقــل هــو العقيدة القائمة على المنهج العلمي، وينطوي على قلب يكوّن بعده النفســـي، وطريق إصلاح القلب هو تزكية النفـــس وتطــهير الداخــل، وينطــوي علــى

جوارح تكوّن حركتها بعده العملـي، والطريـق لإصـلاح حركـة الجـوارح وممارساتها هو إصلاح العقل والقلـب أولاً، وضبـط الممارسـة الإنسـانية وفق أحكام الشريعة ومقرراتها ثانياً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

تم الفراغ منه في ٢٠ جمادى الثاني ١٤١٩ هـ

المصادف لذكرى ولادة الصدّيقة الكبرى

فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين (عليها السلام)

* * * * * * * * * * * *

المحتويات

كامل الهاشمي

* من مواليد البحرين ١٩٦٢.
* استاذ في الحوزة العلمية في قم.

آثاره:

١ ـ المعصية وآثارها في الحياة الإنسانية ١٩٨٧.

٢ ـ عودة الإسلام ١٩٨٩.

٣ ـ القيمة المعرفية للكشف والشهود ١٩٩٣.

٤ ـ شبابنا ومشاكلهم الروحية ١٩٩٤.

٥ ـ دراسات نقدية في الفكر العربي المعاصر ١٩٩٦.

٦ ـ مطارحات فلسفية في الفكر السياسي الإسلامي ١٩٩٧.

٧ ـ اشراقات الفلسفة السياسية في فكر الامام الخميني١٩٩٧.

٨ ـ اسلمة الذات في المنهج التغييري للأئمة (هذا الكتاب).

كتاب قضايا اسلامية معاصرة

سلسلة دورية تصدرها مجلة قضايا اسلامية معاصرة

رئيس التحرير: عبدالجبار الرفاعي

* اشراقات الفلسفة السياسية	كامل الهاشمي
* الاجتهاد والتجديد	ابراهيم العبادي
* منهج الامام في التفسير	عبدالسلام زين العابدين
* علم الكلام الجديد	محمد مجتهد شبستري
* المدرسة التفكيكية	محمد رضا حكيمي
* اشكالية الاسلام والحداثة	عادل عبدالمهدي
* اسلامية المعرفة	اسماعيل الفاروقي
* اصلاح الفكر الاسلامي	طه جابر العلواني
* جداليات الفكر الاسلامي	ابراهيم العبادي
* فقه التحيز	عبدالوهاب المسيري
* اسلمة الذات	كامل الهاشمي
* نظرية العلم في القرآن	غالب حسن
* القسط والعدل	لمحمد رضا حكيمي واخويه
* مقدمة في اسلامية المعرفة	طه جابر العلواني
* تطور الدرس الفلسفي في الحوزة العلمية	عبدالجبار الرفاعي
* قضايا التجديد	حسن الترابي
* نزعة التغريب	جلال آل احمد
* الدستور والبرلمان	جعفر عبدالرزاق
* الفكر الاسلامي: تطوراته ومساراته	زكي الميلاد
* علم الاستغراب	حسن حنفي
* الاجتهاد التحقيقي	محمد رضا حكيمي
* المستنيرون: خدمات وخيانات	جلال آل أحمد
* أصالة النبوة في حياة الرسول الكريم	غالب حسن
* اشكاليات التجديد	ماجد الغرباوي
* مقاصد الشريعة	طه جابر العلواني